

التذكير بأهمية خلق الاحترام والتوقير

كتبه

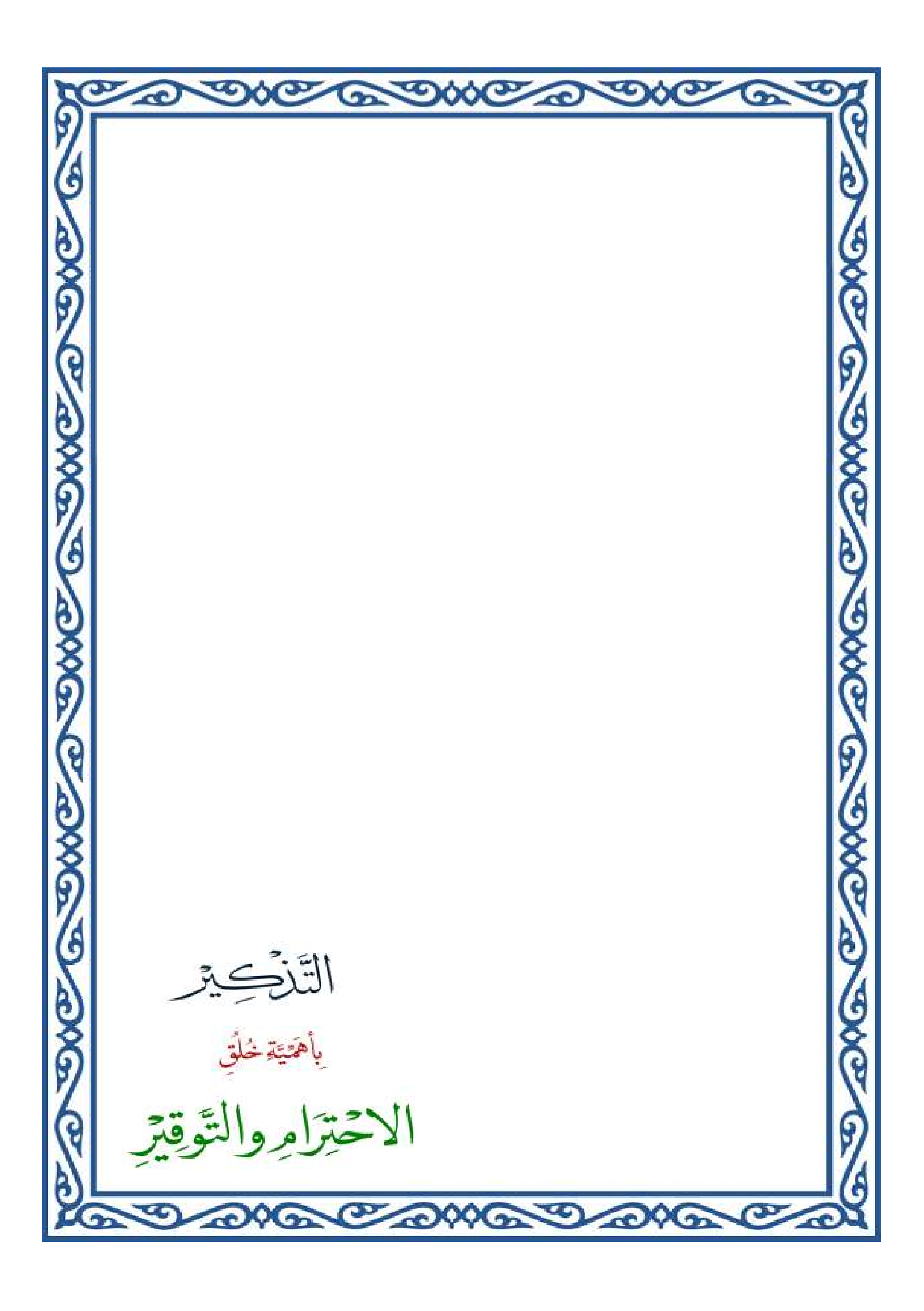
أبو المنذر عمار بن عبد الجليل الحوباني الوريقي

غفر الله له

دار الإمام الشافعي

للطباعة والنشر والتوزيع

اليمن - عدن



التَّذْكِيرُ

بِأَهَمِّيَّةِ خُلُقِ

الاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ



الشريف للطباعة
مراجعة تنسيق صف إخراج
772006613 - 730304934
779555171 - 715273115

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن
الشيخ عثمان جولة القاهرة
خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢ - +٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤
alshafibooks@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م



التَّذْكِيرُ

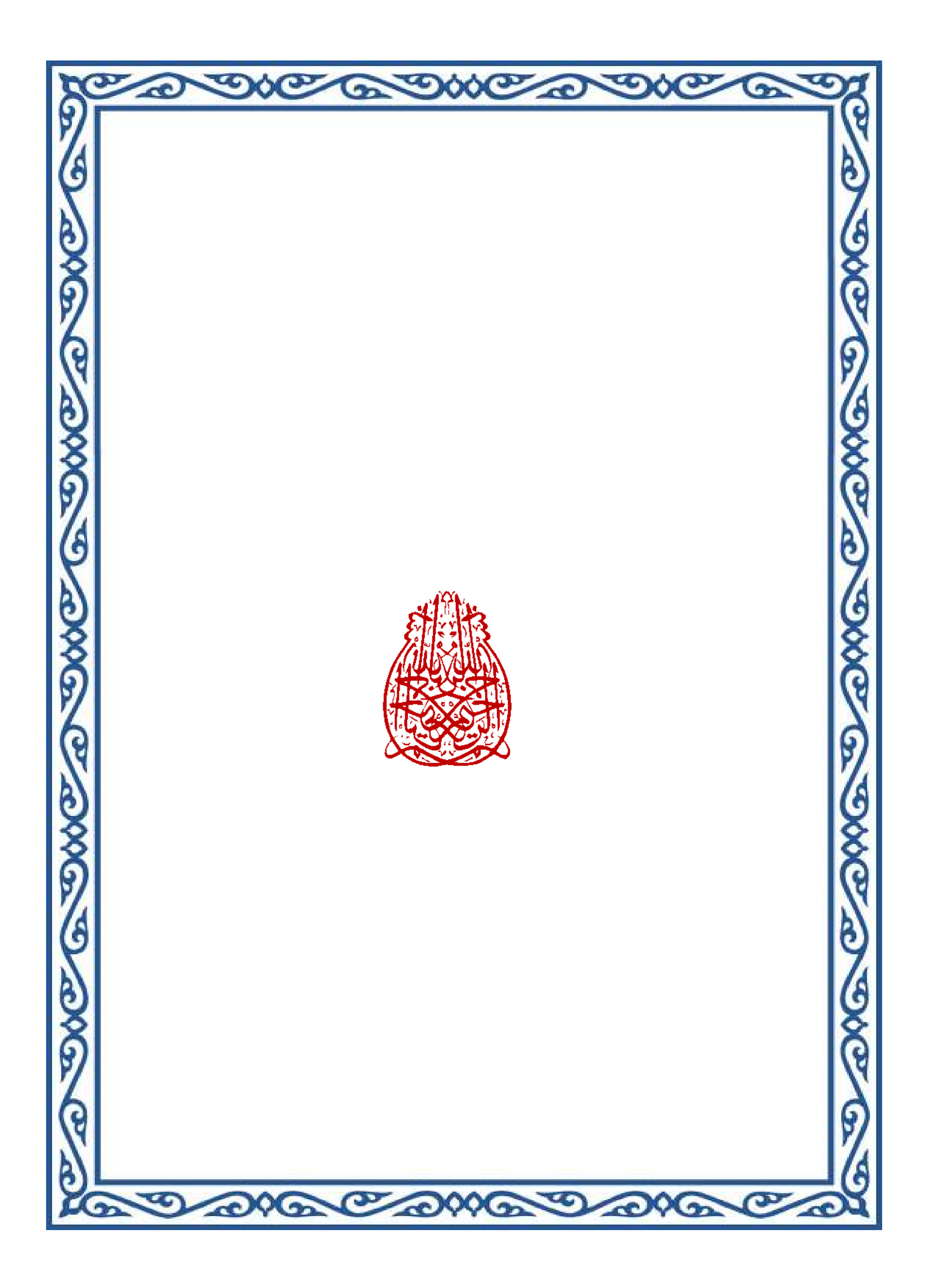
بِأَهَمِّيَّةِ خُلُقِ

الاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ

تَأْلِيفُ

أَبِي المُنْذِرِ عَمَّارِ بْنِ عَبْدِ الجَلِيلِ الحُوبَانِي

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ



المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب]

أما بعد:

فهذه رسالة بعنوان: «**التذكير بأهمية خلق الاحترام والتوقير**» في موضوع مهم أرى أن التعريج عليه من المهمات في تعاملات الناس فيما بينهم، ويتعلق بجانب معين: وهو مسألة تبادل الاحترام في الخطاب بين الناس عموما -من رجال ونساء، سواء كانوا صغارا أم كبارا، من طلاب العلم وغيرهم من عوام المسلمين- فيما بينهم، والتأدب والتحلي بخلق توقير الكبار، وأهل الفضل من العلماء والمشايخ الفضلاء.

وفيه ما يتعلق بجانب مهم في التعامل مع الصغار من الأبناء، وملاطفتهم، وإعطائهم الأهمية وحسن التعامل معهم.

هذا وإني رأيت أن الكلام في هذا الجانب في غاية الأهمية، والحاجة إليه ملحة، وقد كنت كتبت منشورا في ذلك ونشرته في الواتساب وغيره، ثم إن بعض المشايخ الكرام أشاروا عليّ بأن أتوسع قليلا بما يكون في رسالة مختصرة مع ذكر الفضائل والآداب، والضوابط الواردة في ذلك؛ لعل الله أن يكتب فيها الأجر والثواب، فأجبت الطلب، واستعنت بالله، وجمعت ما يسره الله في هذا الباب، وحاولت الاختصار في الأبواب، فلم أسق في كل باب كل ما ورد فيه من أدلة، وشرح، وكلام لأهل العلم، وإنما إشارة لما عداها؛ حتى لا يحصل التطويل؛ ويصاب القارئ بالسآمة.

هذا وقد ألحقته في الباب الأخير بمنشوري الأول المختصر، الذي كان السبب في التوسع في هذه الرسالة.

ونسأل الله أن ينفعنا جميعا به، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

والحمد لله رب العالمين.

✍ وكتبه:

أبو المنذر عمار بن عبد الجليل الوريفي الحوباني

-غفر الله له ولوالديه وللمسلمين-



باب: أصل الاحترام القول الحسن الموافق للسداد:

فقد رغبنا ربنا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وأمرنا بالقول السديد، وبالكلمة الطيبة في آيات كثيرة من كتابه؛ لما في ذلك من فضل عائد على صاحبه في الدنيا والآخرة، فهو من أسباب سلامة القلوب، ومما يقوي أواصر المحبة والإخاء، ويدفع الشحناء والبغضاء، ويعين على النقاء والصفاء، فحري بأن يتحلى به المسلم؛ ليكون من خيار عباد الله الفضلاء.

■ فهو من أسباب صلاح الأعمال وقبولها، وغفران الذنوب وتكفيرها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأحزاب].

ومن الآيات المرغبة في ذلك ما قاله الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴿٨٣﴾﴾[البقرة].

■ وأخبر -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أن القول الطيب والكلام الحسن من أسباب إرغام الشيطان كما قال سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾[الإسراء].

■ وأخبر بأن القول السديد والكلام اللين من أسباب لين الجانب، والاستجابة والخشية لمن أراد الله به الخير، فقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾[طه].

■ وهو من أسباب دخول الجنة، فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ». رواه البخاري، برقم: (٦٨٠٧).

■ وهو من علامة أهل الإيمان، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». رواه البخاري، برقم: (٦٠١٨)، ومسلم، برقم: (٤٩).

وبالمقابل حذر -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- من الإساءة سواء بالقول أو بالفعل، ورغب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بمراقبته في هذا الجانب كما قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾[الإسراء].

وقال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾[ق]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾[النور].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ». رواه

البخاري، برقم: (٦٤٧٧)، ومسلم، برقم: (٢٩٩٠).

والأدلة في هذا الباب كثيرة جدا، وقد صنفت فيه المصنفات الكثيرة، وإنما أردت في هذا المقام الإشارة لبعضها اختصارا.





باب: الاحترام يُبنى على الأخلاق الحسنة:

اهتم ديننا الحنيف بالتحلّي بالأخلاق الكريمة، وقد كان نبينا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إمام المسلمين في ذلك، وقد أثنى الله عليه بذلك، ووصفه به في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، وقد بعث -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ليتمم مكارم الأخلاق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»، وفي لفظ: «مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم: (٢٧٣)، والإمام أحمد، برقم: (٨٧٢٩)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ١١٢)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ١٤٥).

وقد ورد في حسن الخلق فضائل جمة في الكتاب والسنة، مما يكسب صاحبه الأجر الجزيل، فمن ذلك:

ما جاء عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ». رواه أبو داود، برقم: (٤٧٩٨)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢/ ٤٢١).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ»، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ عَائِشَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَنَسٍ، وَأُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ. رواه

الترمذي، برقم: (٢٠٠٢)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٥).

وعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهَا: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ». رواه أحمد في مسنده (٢٤٧٣٠)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢/ ٤٨).



باب: التأسي بأدب خطاب الصحابة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

لقد كان الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِين- من أشد الناس توقيرا للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لا سيما عند التخاطب معه، فما كانوا ينادونه باسمه مجردا، كيف وقد نهاهم الله تعالى عن هذا، فقال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور].

قال القرطبي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في تفسيره (١٢/ ٣٢٢)-: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ يُرِيدُ: يَصِيحُ مِنْ بَعِيدٍ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! بَلْ عَظِّمُوهُ، كَمَا قَالَ فِي الْحُجُرَاتِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣] الْآيَةَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى قُولُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِي رِفْقٍ وَلِينٍ، وَلَا تَقُولُوا: يَا مُحَمَّدُ بِتَجَهُّمٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَهُمْ أَنْ يُشَرِّفُوهُ وَيُفَخِّمُوهُ. اهـ

ومن الأمثلة على توقيرهم للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-:

ما جاء عن **ابن أبي مليكة قال**: كَادَ الْخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ -أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ- وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ،

فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [الحجرات:٢] الْآيَةَ.

قال ابن الزبير: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. رواه البخاري، برقم: (٤٨٤٥).

وما جاء عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: بَيْنَمَا نَبِيُّ اللهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي نَخْلٍ لَنَا -نخلٍ لِأَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، يَتَبَرَّزُ لِحَاجَتِهِ، قَالَ: وَبِلَالٌ يَمْشِي وَرَاءَهُ، يُكَرِّمُ نَبِيَّ اللهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَمْشِيَ إِلَى جَنْبِهِ، فَمَرَّ نَبِيُّ اللهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- بِقَبْرٍ، فَقَامَ حَتَّى تَمَّ إِلَيْهِ بِلَالٌ، فَقَالَ: «وَيْحَكَ يَا بِلَالُ، هَلْ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ؟»، قَالَ: مَا أَسْمَعُ شَيْئًا، قَالَ: «صَاحِبُ الْقَبْرِ يُعَذَّبُ»، قَالَ: فَسُئِلَ عَنْهُ فَوُجِدَ يَهُودِيًّا. رواه الإمام أحمد في مسنده ط: الرسالة (٢٠/ ١١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٣١٨).

قلتُ: وهذا شامل في خطابه حال حياته وبعد مماته -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-، فلا يقل المسلم قال: محمدٌ مجردا، دون قوله: قال نبي الله، أو رسول الله، أو قال سيدنا محمد -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فهو سيد ولد آدام- أو نحو ذلك، وليس من الأدب ولا التوقير له فعل ذلك. قال سيدنا محمد -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- فهو سيد ولد آدام.

وهكذا إذا ذكره المسلم لزمه أن يصلي عليه؛ لأمر الله له بذلك، قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾[الأحزاب]، فإن هذا كله من التوقير له -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-.

ونقل البيهقي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في شعب الإيمان (٣/ ٩٦) عن الحليمي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه قال: فَحَقَّ عَلَيْنَا إِذًا أَنْ نَحِبَّهُ وَنُجِلَّهُ، وَنُعْظِمَّهُ وَنُهِيبَهُ أَكْثَرَ مِنْ إِجْلَالِ كُلِّ عَبْدٍ سَيِّدَهُ، وَكُلِّ وَلَدٍ وَالِدَهُ، وَبِمْثِلِ هَذَا نَطَقَ الْكِتَابُ، وَوَرَدَتْ أُوَامِرُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَلَاحَ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ جَمَعَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ تَعْزِيرَهُ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ التَّعْزِيرَ هَاهُنَا التَّعْظِيمُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: ٨-٩]، فَأَبَانَ أَنَّ حَقَّ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي أُمَّتِهِ أَنْ يَكُونَ مُعَزَّزًا مُوَقَّرًا مَهِيبًا، وَلَا يُعَامَلُ بِالِاسْتِرْسَالِ وَالْمُبَاسَطَةِ، كَمَا يُعَامِلُ الْأَكْفَاءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾[النور: ٦٣]، فَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ إِيَّاكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، فَتُؤَخِّرُوا إِجَابَتَهُ بِالْأَعْذَارِ وَالْعِلَلِ الَّتِي يُؤَخِّرُ بِهَا بَعْضُكُمْ إِجَابَةَ بَعْضٍ، وَلَكِنْ عَظِّمُوهُ بِسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ، وَمُعَاجَلَةِ الطَّاعَةِ. اهـ

☆☆☆

باب: من الاحترام قول "شيخي" و"أستاذي" ونحوها في خطاب المعلم(١):

إن المعلم والمدرس، والشيخ والعالم له حقوق كثيرة على طلابه الذين علمهم، ومن ذلك معرفة فضله، والتواضع له، والثناء عليه، والتوقير، والدعاء له، وعدم التنكر والإساءة إليه، والتعالي عليه، فهذا من الشكر للمعروف، ومعرفة الجميل لأهله، وهذا مطلوب شرعا، فقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَّ». رواه الترمذي، برقم: (١٩٥٤)، وصححه العلامة الألباني، في صحيح الأدب المفرد (ص: ٩٩)، وقد جاء عن أبي هريرة وغيره -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْأَجْمَعِين-.

والآداب في هذا الباب كثيرة، وقد صنف أهل العلم فيها كتبا كثيرة منها - آداب العالم والمتعلم- ولكنني سأجعل الكلام في هذا الباب حول مسألة التخاطب مع العالم والشيخ حال لقائه، أو عند ذكره، فيقول: شيخي ومعلمي، وأستاذي ونحو ذلك مما يوحي بتوقيره واحترامه، والتواضع له ومعرفة قدره، وإنزاله منزلته، فلا

---

(١) ومما تعارف الناس عليه: أن من لقي عالما أو شيخا، أو مفتيا ولو للإجابة على مسألة، أو حضر مجلسا، وأراد التخاطب معه يقول: يا شيخي، ويا شيخنا ونحو ذلك، وهذا الخُلُق مهم للعوام، ولا ينادون العالم باسمه مجردا، ولا يقل العامي أو غيره أنا لست طالبا بين يديه حتى أناديه بذلك.

يناديه باسمه مجردا.

ذكر الخطيب البغدادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أن من أدب الطالب مع شيخه-: أن يُنَبِّلَهُ فِي الْخِطَابِ، وَيُبَجِّلُهُ فِي الْأَلْفَاظِ، وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ لَهُ كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَفْنَاءَ الْعَوَامِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]. وَهَذَا أَصْلٌ فِي أَنْ يُمَيَّزَ ذُو الْمَنْزِلَةِ بِمَنْزِلَتِهِ، وَيُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِطَبَقَتِهِ.(٣) اهـ الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧٩).

وقال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وَإِذَا خَاطَبَ الطَّالِبُ الْمُحَدِّثَ عَظَّمَهُ فِي خِطَابِهِ بِنِسْبَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى الْعِلْمِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَالِمُ، أَوْ أَيُّهَا الْحَافِظُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. (٤) اهـ

وقال ابن جماعة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص: ٤١)- وقال الخطيب: يقول: أيها العالم، وأيها الحافظ ونحو ذلك، وما تقولون في كذا، وما رأيكم في كذا وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته أيضًا باسمه إلا مقرونًا بما يشعر بتعظيمه، كقوله: قال الشيخ، أو الأستاذ كذا، وقال شيخنا، أو قال حجة الإسلام، أو نحو ذلك. اهـ

وقال الخطيب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣٣٦)-: لَمَّا دَخَلَ رَبِيعَةُ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ -وَهُوَ خَلِيفَةٌ- قَالَ: يَا رَبِيعَةُ حَدِّثْنَا، قَالَ: مَا أُحَدِّثُ شَيْئًا، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الَّذِي يَقْتَرِحُ عَلَيَّ كَمَا يَقْتَرِحُ عَلَى الْمُغَنِّيَةِ: حَدِّثْنَا يَا رَبِيعَةُ!. اهـ

قلت: وينبغي للطالب والمتعلم أن يثني على شيخه ومعلمه خيرا فقد جرى عمل السلف من المحدثين على هذا، وأن لا يترفع عن هذا الخلق.

ومن النماذج في ذلك:

ما جاء عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: جَاءَنَا مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ فَصَلَّى بِنَا فِي مَسْجِدِنَا هَذَا، فَقَالَ: إِنِّي لَأُصَلِّي بِكُمْ وَمَا أُرِيدُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أُرِيَكُمْ كَيْفَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- يُصَلِّي، قَالَ أَيُّوبُ: فَقُلْتُ لِأَبِي قِلَابَةَ: وَكَيْفَ كَانَتْ صَلَاتُهُ؟ قَالَ: مِثْلَ صَلَاةِ شَيْخِنَا هَذَا -يَعْنِي: عَمْرَو بْنَ سَلِمَةَ-. رواه البخاري، برقم: (٨٢٤).

ومن أروع الأمثلة في توقير الطالب لمعلمه وشيخه وإجلاله له:

ما حصل من الإمام مسلم بن الحجاج -صاحب الصحيح- مع شيخه البخاري -رَحِمَهُٱللَّهُ- جاء ذلك في كتاب علوم الحديث للحاكم (١/ ١١٣) قال: حَدَّثَنِي أَبُو نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنَ حَمْدُونَ الْقَصَّارَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بْنَ الْحَجَّاجِ وَجَاءَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُقَبِّلَ رِجْلَيْكَ يَا أَسْتَاذَ الأُسْتَاذِينِ، وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِينَ، وَطَبِيبَ الْحَدِيثِ فِي عِلَلِهِ... وإسناده حسن، ورواه من طريق الحاكم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٥/ ١٢١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٣/ ٦٨)، وابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٤٢٢)، والذهبي في تاريخ الإسلام (١٩/ ٢٤٧).

ومن الأمثلة في توقير المشايخ:

ما ذكره الذهبي -رَحِمَهُٱللَّهُ- في سير أعلام النبلاء ط: الرسالة (٧/ ١١٢)- قال: لما

بلغ الثوريَّ مقدم الأوزاعي، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريقَ للشيخ. اهـ

وإطلاق لفظ الشيخ أو الأستاذ كثير جدا عند المحدثين فمن ذلك:

قال أبو نعيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/٧٦)-: أفادني هذا الحديث الدارقطني عن شيخي. اهـ.

وقال البيهقي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السنن الصغرى (٣/٢٩٠)-: وَكَأَنَّهُ سَقَطَ مِنْ كِتَابِي، أَوْ كِتَابِ شَيْخِي. اهـ

ويقول الجرجاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١/٨٨)-: أَنْشَدَنِي أَبِي الْمُظَفَّرُ مُصَوِّرُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَبَّانُ قَالَ: أَنْشَدَنِي الصَّاحِبُ بِقِرَاءَةِ شَيْخِي عَلَيْهِ... اهـ

وقال الخلال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضائل شهر رجب (ص:٤٣)-: وأخبرنا شيخي الْإِمَام الأوحد، العلامة بقية السلف، فخر الخلف محب الدين أَحْمَد بْن عَبْد اللهَّ بْن مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر الطبري. اهـ

وقال أحمد بن أبي الحواري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وسمعت شيخي أبا سليمان الداراني -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- يقول إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

قال أحمد بن حنبل: صدقت يا أحمد، وصدق شيخك، ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إلي من هذه، من عمل بما عَلِم أورثه الله علم ما لم يعلم. اهـ من كتاب

إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: ٢٩).

وقال أبو العباس الظاهري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مشيخة ابن البخاري (١/٥١١)-: ... فَكَأَنَّ شُيُوخَ شَيْخِي سَمِعُوهُ مِنْ صَاحِبِهِ. اهـ

وقال أبو بكر المراغي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مشيخة أبي بكر المراغي (ص: ٧٤)-: رويته عن أبي روح الهروي شيخ شيخ شيخي، ولله الحمد سبحانه. اهـ

وقال السخاوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البلدانيات (ص:٤٧)-: ....سَمِعْتُهُ مِنْهُ، وَقَالَ شَيْخِي: وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ حَضَرْتُهُ عَنْدَهُ. اهـ

وقال السيوطي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جياد المسلسلات (ص:٨٩)-: ...أخبرني شَيْخِي الإِمَامُ تَقِيُّ الدِّينِ الشُّمُنِّيُّ. اهـ

وقال أبو الفرج الجوزي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٤/٣٩٣) في سياق ذكره لترجمة بعض مشايخه-: .... وهو شيخي، وعنه أخذت العلم في البداية... اهـ

وقال الزركشي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعتبر (١٩/ ٢٠): وذكر شيخنا ابن كثير عن شيخه أبي الحجاج المزي أنه يقول: .... اهـ

وقال ابن أبي الدنيا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الاعتبار وأعقاب السرور- (ص: ٢٥)- ..... أَخْبَرَنِي الْمُسْنِدُ شَيْخِي الْجَلَالُ. اهـ

وقال الخطابي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معالم السنن (٤/٣٥٣): وقد كتبت بواسطة شيخي عالم ديوبند ومحدثها، ونزيل مكة الآن اطلب هذا الشرح وسأرسله لكم إذا وصلني،

وفقكم الله لنشر كتب السنة. اهـ

وقال المازني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعلم بفوائد مسلم (٢/٢٣٧)-: ....وكان شيخي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- .... اهـ

وقال الطيبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح المشكاة (٥/١٦٩٩)-: ...سمعت شيخي عبد الرحمن الأفضلي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ....إلخ.

وقال الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتح الباري (١٣/١٨٧): ...بل غايته أن يكون حسنا، وكنت سألت شيخي الإمامين العراقي والبلقيني عن هذا الموضع فكتب لي كل منهما بأنهما لا يعرفان له متابعا، وعولا جميعا على أنه عند البخاري ثقة فاعتمده، وزاد شيخنا العراقي...إلخ

وقال الصنعاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التنوير شرح الجامع الصغير (١/٢٩٥)- وقال الهيثمي: أخبرني شيخي -يريد العراقي-...الخ.

وقال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحكام أهل الذمة ط: العلمية (٦/٨٢)-: وكان شيخي -ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- يقول: لا يمنع أهل الذمة من ركوب جنس الخيل.

وتعبيرات ابن القيم كثيرة جدا في وصفه لشيخ الإسلام بشيخي وشيخنا.

وقال القرطبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التذكرة بأحوال الموتى (ص: ١١٢٥)-: ... ودخل بشر المدينة فصعد منبرها فقال: أين شيخي الذي عهدته هنا بالأمس يعني عثمان بن عفان...إلخ.

وقال النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بستان العارفين (ص: ٨٠)-: سمعت شيخي وسيدي، الإمام العلامة، المفتي المدقق، المتقن مجموع أنواع المحاسن عز الدين أبا حفص عمر بن أسد بن أبي غالب الأربلي الشافعي رضي الله تعالى عنه...إلخ

وقال ابن مفلح -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الآداب الشرعية (٢/١٧٥)-: .... عن عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، سَمِعْت الْمُطِيعَ الْخَلِيفَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ فِي يَوْمِ عِيدٍ: سَمِعْت شَيْخِي عَبْدَ اللَّهَّ الْبَغَوِيَّ يَقُولُ: سَمِعْت الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: إذَا مَاتَ أَصْدِقَاءُ الرَّجُلِ ذَلَّ. اهـ

وقال الزركشي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التذكرة في الأحاديث المشتهرة (ص: ١٦٠): قَالَ شَيخنَا عماد الدّين ابن كثير فِي تَفْسِيره: وَلَا أصل لَهُ. اهـ

وما ورد في هذا المعنى كثير جدا، من زمن قديم وحديث، فقد كان علماؤنا يجلون مشايخهم، ويذكرونهم بالخير، كالإمام ابن باز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، فقد كان يطلق على مشايخه عبارة: شيخي، ومشايخنا. وكذا ابن عثيمين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يطلق على ابن باز، وكذا الفوزان، والعباد -حفظهما الله-، والشيخ مقبل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والشيخ يحيى الحجوري -حفظه الله- وغيرهم من العلماء.

فهذا الخلق متأصل فيهم، وسنة جرى عليها العمل عندهم، فحري بطالب العلم أن يتصف بهذا الخلق، وأن يتحلى بهذه الخصلة، وهذا الخلق الرفيع، الذي يدل على التأدب مع أهل العلم.

باب: هل ينادى الكبير ومن كان من ذوي الفضل من العلماء بالوالد:

إن مما تعارف عليه الناس في مخاطبة العالم، ومن كان من ذوي الفضل، أو من كبار السن، أن ينادوا بـ(يا والد) يريدون بهذا توقيره، فيقولون في حضرته: زرنا الوالد، وقال والدنا، ويا والدنا، وشيخنا ووالدنا ونحو ذلك، وهذا معمول به عرفا، ولم نجد من أنكر ذلك من المشايخ والعلماء.

فبمثل هذا ينادون، ويخاطبون، ويقال لهم في حضرتهم، ولا ينكرون على قائله، وعليه فإنه من هذه الناحية غير مستنكر -إن شاء الله-.

وأما من حيث الدليل: فليس هناك ما يدل على ما يمنعه، وقد كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بمنزلة الوالد، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ». رواه أبو داود، برقم: (٨)، وحسنه العلامة الألباني، في صحيح سنن أبي داود، والعلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ١٣١).

وجاء بلفظ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُم». رواه النسائي، برقم: (٤٠)، وحسنه العلامة الألباني، في تحقيق سنن النسائي.

وهل ورد أن الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- نادوه بالوالد؟

الجواب: جاء عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ أَبِيهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ:

قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: أَنْتَ وَالِدُنَا، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَفْضَلُنَا عَلَيْنَا فَضْلا، وَأَنْتَ أَطْوَلُنَا عَلَيْنَا طُولا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ لا تَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ». رواه النسائي في السنن الكبرى ط: العلمية (٦/ ٧٠)، بإسناد حسن، وصححه العراقي، والسبكي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٤١).

فهذا مما يستأنس به في هذه المسألة والله أعلم.

فلا بأس في إطلاق لفظ والد على غير ذوي النسب لمن كان من كبار السن، وأهل الفضل من العلماء والمشايخ الكبار، وقد جاء في فتاوى **ابن الصلاح** -رَحِمَهُ اللَّهُ- (١/ ١٨٦)- فقال السائل: مَسْأَلَة فِي الْأُبُوَّة، هَل يجوز أَن يُطلق فِي الْكتاب الْعَزِيز، والْحَدِيث الصَّحِيح على الْأَب من غير صلب...؟

فأجاب -رَحِمَهُ اللَّهُ-: فقال: قَالَ الله -تبَارك وَتَعَالَى-: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَ﴾[البقرة: ١٣٣] وَإِسْمَاعِيل من أَعْمَامه لَا من آبَائِهِ، وَقَالَ -سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾[يوسف: ١٠٠]. وَأمه كَانَ قد تقدم وفاتها، قَالُوا: وَالْمرَاد خَالَته، فَفِي هَذِه اسْتِعْمَال الْأَبَوَيْنِ من غير ولادَة حَقِيقِيَّة، وَهُوَ مجَاز صَحِيح فِي اللِّسَان الْعَرَبِيّ ....، ذَلِك النَّبِي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- والعالم وَالشَّيْخ، وَالْمرَاد سَائِغ من حَيْثُ اللُّغَة وَالْمعْنَى.....إلخ.

وقال القرطبي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في تفسيره (١٢/ ١٠١)-: وَإِبْرَاهِيمُ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ قَاطِبَةً. وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْكُلُّ مِنْ وَلَدِهِ، لِأَنَّ حُرْمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى

الْمُسْلِمِينَ كَحُرْمَةِ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ. اهـ

وقال شيخنا عبد المحسن العباد -حفظه الله-: خطاب الرجل لغير والده بـ (الوالد) إذا كان لكونه شيخا له، أو لغيره من المعاني المناسبة لذلك لا بأس.

وكان الشيخ ابن باز يراسل الشيخ محمد بن إبراهيم دائما بـ (الوالد). اهـ من كتاب: من فوائد درس الشيخ عبد المحسن العباد في سنن أبي داود (ص:١٣٨).

ومن خلال ما مضى يظهر أنه لا مانع من إطلاق لفظ (والد) على غير ذوي النسب من كبار السن، وذوي الفضل من العلماء، مع أنه لم يرد في كلام السلف مع مشايخهم وعلمائهم، وأما عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فقد ورد كما في الحديث المتقدم، وكما في كلام ابن الصلاح والقرطبي، من أنه لا مانع من إطلاقها عليه، وعلى غيره من أولي الفضل، من مشايخ وعلماء، وكبار السن. والله تعالى أعلم.

فائدة:

أما قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[الأحزاب]

فقد **قال القرطبي** -رَحِمَهُ اللَّهُ- في تفسيره (١٤/١٩٦)-: لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ قَالَ النَّاسُ: تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ،-أي: زيد بن حارثه- فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، أَيْ لَيْسَ هُوَ بِابْنِهِ حَتَّى تَحْرُمَ عَلَيْهِ حَلِيلَتُهُ، وَلَكِنَّهُ أَبُو أُمَّتِهِ فِي التَّبْجِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَنَّ نِسَاءَهُ عَلَيْهِمْ حَرَامٌ، فَأَذْهَبَ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَا وَقَعَ فِي نُفُوسِ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَأَعْلَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ أَبَا أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ الْمُعَاصِرِينَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ. اهـ

وقال أيضا -في تفسيره (١٢٥/١٤)-: قَالَ قَوْمٌ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى النَّبِيُّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- أَبًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]. وَلَكِنْ يُقَالُ: مِثْلُ الْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ...» الْحَدِيث. خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: فِي الْحُرْمَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾أَيْ: فِي النَّسَبِ. اهـ

وقال ابن الملقن -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢١٧/٣٢)-: ولا شك أنه والدنا وأعظم، ومعنى (الآية): ليس أحد من رجالكم ولد صلبه؛ نفيًا لما وقع من التبني، وتزويجه بزوجته، ونص الإمام الشافعي على أنه يجوز أن يقال: أبو المؤمنين. أي: في الحرمة. وقال البغوي -من أصحابنا-: كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أبا الرجال والنساء جميعًا. اهـ

قال النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تهذيب الأسماء واللغات (١٨/١)-: فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الإنسان والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم، وبرهم، وذكر مآثرهم، والثناء عليهم، وشكرهم.

قال السفاريني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٣٩٠/١)-: قَدْ قَالَ عُلَمَاءُ الْمُصْطَلَحِ: الْأَشْيَاخُ آبَاءٌ فِي الدِّينِ، وَقَالَ لِي شَيْخَانِ، أَبُو التَّقِيِّ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ التَّغْلِبِيُّ الشَّيْبَانِيُّ -أَغْدَقَ اللهُ الرَّحْمَةَ عَلَى رَمْسِهِ-: شَيْخُك أَبُوك، بَلْ أَعْظَمُ

حَقًّا مِنْ وَالِدِك؛ لِأَنَّهُ أَحْيَاك حَيَاةً سَرْمَدِيَّةً، وَلَا كَذَلِكَ وَالِدُك. أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ، وَقَالَ لِي: النَّاسُ يَقُولُونَ فُلَانٌ -يَعْنِي نَفْسَهُ- لَا وَلَدَ لَهُ، وَهَلْ لِأَحَدٍ مِنْ الْوَلَدِ مِثْلُ مَا لِي، يَعْنِي تَلَامِذَتَهُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ.

✩✩✩

باب: ما جاء من الأدب في توقير الصغار للكبار ولأولي الفضل:

قد يخاطب الصغار الكبار، وهم على طبقات من أولي الفضل من العلماء والمشايخ، وطلاب العلم والدعاة إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فمن المناسب ألا يخاطبهم في النداء بالاسم مجردا، بل من التوقير أن ينادي كلًّا بحسبه، فإن كان شيخا قال: يا شيخ، وإن كان عالما قال: يا فضيلة الشيخ أو نحوه، وإن كان مدرسا قال: يا معلم أو يا أستاذ، وإن كان في طبقته قال: يا أخي الفاضل ونحو ذلك.

فقد كان السلف -رَحِمَهُمُ اللهُ- يعدون تجريد أولي الفضل عند النداء بأسمائهم من عدم الاحترام، ومن ذلك ما جاء عن إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيِّ قال: جَاءَ فَتًى إِلَى سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مِنْ خَلَفِهِ فَحَيَّاهُ، وَقَالَ: يَا سُفْيَانُ، حَدِّثْنِي، فَالْتَفَتَ سُفْيَانُ، فَقَالَ: يَا فَتًى، إِنَّهُ مَنْ جَهِلَ أَقْدَارَ الرِّجَالِ فَهُوَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ أَجْهَلُ. رواه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة (٣٦).

فينبغي للإنسان أن يوقر من هو أكبر منه في الفضل وغيرهم، لا سيما عند التحدث معهم، فهذا من التوقير المأمور به شرعا.

- فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا». رواه الترمذي، برقم: (١٩١٩)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٣٤٩).

- وجاء عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ». رواه أحمد في مسنده، برقم: (٢٢٢٤٨)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٢٤).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ». رواه البخاري، برقم: (٦٢٣١)، ومسلم، برقم: (٢١٦٢).

فنستفيد من هذه الأحاديث أن الناس يتفاوتون في الفضل، وأن من الأدب أن يتخاطب المتكلم مع كل واحد بحسبه، وأن الكبير يرحم الصغير، والصغير يتأدب مع من هو أكبر منه سنا وفضلا، مع إكرامهم وإجلالهم، فعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ». رواه أبو داود، برقم: (٤٨٤٣)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٢٣).

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَوْصَى وَلَدَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ قَالَ: اتَّقُوا اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَسَوِّدُوا أَكْبَرَكُمْ، فَإِنَّ الْقَوْمَ إِذَا سَوَّدُوا أَكْبَرَهُمْ خَلَفُوا أَبَاهُمْ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَإِذَا مُتُّ فَلَا تَنُوحُوا عَلَيَّ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُنَحْ عَلَيْهِ. رواه الإمام أحمد في مسنده ط: الرسالة (٣٤/ ٢١٧)، وحسنه العلامة الألباني، في صحيح الأدب المفرد (ص: ١٤٥).

ومن الأدلة أيضا على توقير الصغير للكبير:

■ ما جاء عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- قَالَ: «أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَذَبَنِي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الْأَصْغَرَ مِنْهُمَا، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ». رواه البخاري، برقم: (٢٤٦)، ومسلم، برقم: (٢٢٧٤).

■ وما جاء عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قَالَ يَحْيَى: وَحَسِبْتُ، قَالَ: وَعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُمَا قَالَا: خَرَجَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ سَهْلِ بْنِ زَيْدٍ، وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ، حَتَّى إِذَا كَانَا بِخَيْبَرَ تَفَرَّقَا فِي بَعْضِ مَا هُنَالِكَ، ثُمَّ إِذَا مُحَيِّصَةُ يَجِدُ عَبْدَ اللهَّ بْنَ سَهْلٍ قَتِيلًا فَدَفَنَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللهَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- هُوَ وَحُوَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِيَتَكَلَّمَ قَبْلَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «كَبِّرِ الْكُبْرَ فِي السِّنِّ، فَصَمَتَ فَتَكَلَّمَ صَاحِبَاهُ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمَا...» وذكره. رواه البخاري، برقم: (٦١٤٢)، ومسلم، برقم: (١٦٦٩).

ومن نماذج توقير الصحابة لأولي الفضل:

■ ما جاء عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- يُحَدِّثُ، أَنَّهُ قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا، فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: ... وذكره. رواه البخاري، برقم: (٤٩١٣)، ومسلم، برقم: (١٤٧٥).

■ وما جاء عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: قَالَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: لَقَدْ

كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- غُلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنَّ هَا هُنَا رِجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي، وَقَدْ صَلَّيْتُ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- عَلَى امْرَأَةٍ مَاتَتْ فِي نِفَاسِهَا، فَقَامَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- فِي الصَّلَاةِ وَسَطَهَا.

★★★



باب: من الاحترام المدح لمن كان من أهله مع أمن الفتنة:

المدح والثناء الحسن إذا كان بحق لمن يستحقه من غير غلو ولا مجاوزة ومع أمن الفتنة على صاحبه من الرياء والعجب مشروع(١)، فالأب أو الأم يثنيان على أولادهما، والمعلم يثني على طلابه، والشيخ يمدح تلامذته، وولي الأمر يثني على عماله، والصاحب يثني على صاحبه، وكل هذا مما تُسر به النفوس، وهو من أسباب التحفيز للخير، وشحذ الهمم على المزيد من التقدم للخير والمنافسة عليه، وهو وسيلة تربوية نافعة -بفضل الله- إلى كل خير، ومن أسباب المحبة وصفاء القلوب، وتبادل ذلك بين الناس، وبين أولي الفضل من أسباب الاحترام والتوقير لبعضهم، وقد جاءت أدلة في جوازه بالضوابط المتقدمة، فقد كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يبشر

---

(١) **قال الحافظ ابن حجر** -رَحِمَهُ اللَّهُ في فتح الباري (١٠/٤٧٨) في ضابط المدح-: والضابط ألّا يكون في المدح مجازفة، ويؤمن على الممدوح الإعجاب والفتنة. اهـ

وقال النووي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرحه على مسلم (١٨/١٢٦): ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه.

قال العلماء: وطريق الجمع بينهما أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو

قال العلماء: وطريق الجمع بينهما أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو
على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحبا. اهـ

أقواما بالجنة، وهذا غاية في الفضل لصاحبه، فيكون هذا من أسباب ثباتهم على الخير، **والأمثلة على ذلك كثيرة منها:**

▪ ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ أَيْ فُلُ هَلُمَّ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ذَاكَ الَّذِي لَا تَوَى عَلَيْهِ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ». رواه البخاري، برقم: (٣٢١٦)، ومسلم، برقم: (١٠٢٩).

▪ وجاء عن سعد بن أبي وقاص -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّك». رواه البخاري، برقم: (٣٦٨٣)، ومسلم، برقم: (٢٤٠٠).

▪ وعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ-رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- حِينَ ذَكَرَ فِي الْإِزَارِ مَا ذَكَرَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن إِزَارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدِ شِقَّيْهِ، قَالَ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ». رواه البخاري، برقم: (٦٠٦٢).

قال ابن بطال -رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه لصحيح البخاري (٩/٢٥٥)-: يجوز الثناء على الناس بما فيهم على وجه الإعلام بصفاتهم؛ لتعرف لهم سابقتهم، وتقدمهم في الفضل، فينزلهم منازلهم، ويقدموا على من لا يساويهم، ويقتدى بهم في الخير، ولو لم يجز وصفهم بالخير والثناء عليهم بأحوالهم لم يعلم أهل الفضل من غيرهم، ألا ترى أن النبي -عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ- خص أصحابه بخواص من الفضائل بانوا بها عن سائر

الناس، وعرفوا بها إلى يوم القيامة، فشهد للعشرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- بالجنة، كما شهد لعبد الله بن سلام، وليس قول سعد: ما سمعت النبي -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- يقول لأحد أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام بمعارض لمن سمعه -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- يشهد بذلك لغيره، بل يأخذ كل واحد بما يسمع، وكذلك قال في أبي بكر الصديق: «كل الناس قال لي: كذبت، وقال لي أبو بكر: صدقت»، وقال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواهم في الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح، وأعلم أمتي بالحلال معاذ بن جبل، وأقرؤهم أبي موسى، وأفرضهم زيد». وقال -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- في حديث آخر: «ما أظلت الخضراء، ولا قَلَّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر» فأثنى عليهم بالحق، وعرف أمته بفضائلهم، وقال لأبي بكر الصديق حين قال له: إزاري سقط من أحد شقية: «لست منهم» فدل هذا كله أن المدح بالحق جائز، وأن الذي لا يجوز من ذلك إنما هو المدح بالكذب، أو القصد بالمدح إلى جهة الإعجاب والفخر وإن كان حقًا. اهـ

■ من أمثلة ذلك ما جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: رَأَيْتُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ- كَأَنَّ بِيَدِي قِطْعَةَ إِسْتَبْرَقٍ فَكَأَنِّي لَا أُرِيدُ مَكَانًا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا طَارَتْ إِلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنَّ اثْنَيْنِ أَتَيَانِي أَرَادَا أَنْ يَذْهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَتَلَقَّاهُمَا مَلَكٌ، فَقَالَ: لَمْ تُرَعْ خَلِّيَا عَنْهُ، فَقَصَّتْ حَفْصَةُ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ- إِحْدَى رُؤْيَايَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ-: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ. رواه البخاري، برقم: (١١٥٨)، ومسلم، برقم:

(٢٤٨١).

باب: التفصيل في ضابط إطلاق لفظة "شيخ"(١)

وقد جعلته على ما يلي:

- معاني لفظة "شيخ" في القرآن الكريم.
- اصطلاح لفظة "شيخ" في كتب الجرح والتعديل.
- اصطلاح لفظة "شيخ" في كتب الفقه.
- اصطلاح لفظة "شيخ" في كتب أهل العلم.
- اصطلاح لفظة "شيخ" في عرف القبائل.
- التعريف بلفظة "شيخ" في كتب اللغة، وأنها قد يراد بها المدح والثناء.
- مقدمة مهمة فيها النصح لمن أُثني عليه خيرا بلفظة "شيخ" أو غيرها:
- التفصيل في إطلاق لفظة "شيخ" في أوساط طلاب العلم.
- اعتبار الشهرة في إطلاق لفظ "شيخ".
- لا يشترط سنا معينا لمن أطلق عليه لفظة "شيخ" لمن كان من أهلها.
- خاتمة مهمة لمن همه تجميع تزاكي سواء بإطلاق لفظة "شيخ" أو غيرها.



---

(١) وقد أفردت هذا الفصل في رسالة مستقلة منشورة.

معاني لفظة "شيخ" في القرآن الكريم:

تطلق لفظة شيخ في القرآن الكريم على كبير السن، وقد وردت بهذا المعنى في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى:

الأول: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾[يوسف].

الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود].

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾[غافر].

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾[القصص].

ومن هذا الباب ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: مَا أَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ إِذَا أُحْصِنَ الرَّجُلُ

وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ حَمْلٌ، أَوِ اعْتِرَافٌ، وَقَدْ قَرَأْتُهَا (**الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ**)، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ. رواه ابن ماجه (٣/ ٢٢٥).

✩✩✩

اصطلاح لفظة "شيخ" في كتب الحديث والسير:

يظهر لي أنها تطلق في كتب الحديث ويراد بها أربعة معاني:

المعنى الأول: أن يصفوا راويا ممن سمع من آخر أنه شيخ له، فيقولون: فلان شيخ لفلان، أو يقول الراوي أو التلميذ والطالب: حدثني شيخي، أو شيخنا ونحو ذلك.

وهذا مصطلح معروف مشهور في كتب الحديث في شأن الرواة النقلة عمن سمعوا منهم، وهو كثير في إطلاقاتهم.

المعنى الثاني: ومن إطلاقاتها الخاصة في كتب الحديث النبوي أن يقال: رواه الشيخان، فاصطلحوا على أن المراد به البخاري ومسلم، وعلى هذا عمل الكثير من المخرجين فيكتفي بقوله: رواه الشيخان ويفهم القارئ أن المراد بهما البخاري ومسلم.

المعنى الثالث: عند ذكر الصحابة فإن لفظ الشيخين يراد به أبو بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وعمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وبعد موتهما -في حياة الصحابة- يراد به: علي وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المعنى الرابع: قد يراد بالشيوخ كبار القوم من الصحابة، كما جاء في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ. رواه البخاري، برقم: (٤٢٩٤).



اصطلاح لفظة "شيخ"في كتب الجرح والتعديل:

لكل واحد من علماء وأئمة الجرح والتعديل اصطلاحا خاصا به في إطلاق لفظة "شيخ" عند السؤال عن حال الرواة.

فبعضهم يعدها آخر مراتب التعديل وأول مراتب الجرح، ويرى كثير منهم أن مثل هذا الإطلاق في الراوي أنه غير مطرح من هو مردود الرواية.

وقد يطلقها بعضهم على ما دون الأئمة الحفاظ ولو كان ثقةً.

فهذه اللفظة لكل إمام من أئمة الجرح والتعديل اصطلاح خاص به.

ولذلك **يقول ابن رجب** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح علل الترمذي (١/ ١٦٤)-: والشيوخ في اصطلاح أهل العلم عبارة عمن دون الأئمة والحفاظ، وقد يكون فيهم الثقة وغيره. اهـ

وقال ابن القطان الفارسي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام (٣/٥٣٩)-: "شيخ ": فَإِن هَذِه اللَّفْظَة يطلقونها على الرجل إِذا لم يكن مَعْرُوفا بالرواية مِمَّن أَخذ وَأخذ عَنهُ، وَإِنَّمَا وَقعت لَهُ رِوَايَة لحَدِيث أَو أَحَادِيث، فَهُوَ يَرْوِيهَا، هَذَا الَّذِي يَقُولُونَ فِيهِ: شيخ، وَقد لَا يكون من هَذِه صفته من أهل الْعلم، وَقد يَقُولُونَهَا للرجل، بِاعْتِبَار قلَّة مَا يرويهِ عَن شخص مَخْصُوص، كَمَا يَقُولُونَ: حَدِيث الْمَشَايِخ عَن أبي هُرَيْرَة -رَضِيَٱللَّهُعَنهُ-، أَو عَن أنس -رَضِيَٱللَّهُعَنهُ- فيسوقون فِي ذَلِك رِوَايَات لقوم مقلين عَنْهُم، وَإِن كَانُوا مكثرين عَن غَيرهم.

وَكَذَلِكَ إِذا قَالُوا: أَحَادِيث الْمَشَايِخ عَن رَسُول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ- فَإِنَّمَا

يعنون من لَيْسَ لَهُ عَنهُ إِلَّا الحَدِيث أَو الحديثان وَنَحْو ذَلِك.

وَأَبُو مُحَمَّد-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لم ير فِي هَذَا الرجل القَوْل بِأَنَّهُ شيخ، فَإِنَّهُم لم يَقُولُوا ذَلِك فِيهِ فِيمَا أعلم، وَإِنَّمَا رأى فِي كتاب ابْن أبي حَاتِم سُؤال أبي مُحَمَّد أباه وَأَبا زرْعَة عَنهُ، فَقَالَا: هُوَ شيخ لِابْنِ وهب.

فَهَذَا شَيْء آخر، لَيْسَ هُوَ الَّذِي ذكر، فَإِن لَفْظَة "شيخ" لَفْظَة مصطلح عَلَيْهَا كَمَا تقدم، فَأَما لَفْظَة شيخ لفُلَان، فَإِنَّهُ بِمَعْنى آخر. اهـ

وقال ابن أبي حاتم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة الجرح والتعديل (٢/ ٣٧)-: وإذا قيل: "شيخ" فهو بالمنزلة الثالثة، يكتب حديثه وينظر فيه، إلا أنه دون الثانية. اهـ

وقال الترمذي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سننه (١/ ١٦٨) في بعض الرواة-: وهو شيخ ليس بذاك. اهـ

وقال المباركفوري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحفة الأحوذي (١/٣٠٣) شارحا هذه العبارة: (وهو شيخ ليس بذاك)-: أي بذاك المقام الذي يوثق به. اهـ

وقال شيخنا العلامة المحدث يحيى الحجوري -حفظه الله-: وتطلق في الرواة على من ليس بضعيف، ولا محتج به، قال الذهبي -في مقدمة الميزان-: ولم أتعرض لذكر من قيل فيه: شيخ. فإن هذا ومثله يدل على عدم الضعف المطلق، وربما أطلق ابن القطان لفظة: شيخ على من ليس من أهل العلم ولا طلابه، وإن كان صاحب رواية اتفاقية، ذكر طالب بن حجير في بيان الوهم والإيهام، ونقل أنه ليس من طلبة العلم

ومتقنيه، وإنما هو رجل اتفقت له رواية الحديث. وقال أحمد بن حنبل -في زكريا بن منظور-: شيخ، ولينه. كما في ترتيب المدارك للقاضي عياض. وفي نفس المصدر نقل عن ابن أبي حاتم قوله في عثمان بن الحكم: شيخ ليس بالمتقن.. فمن الممكن أن يلخص هذا فيقال: إن لفظة شيخ آخر مراتب التعديل وأول مراتب الجرح. اهـ كما في مجموع فتاوى الكنز الثمين.



اصطلاح لفظة "شيخ" في كتب الفقه:

كتب الفقه المشهورة هي كتب الحنابلة والشافعية، والمالكية والحنفية، وهي نسبة للأئمة الأربعة أحمد بن حنبل-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، ومحمد بن إدريس الشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ،- ومالك بن أنس-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

فقد يطلقون لفظ الشيخ ويعنون به صاحب المذهب، فيقولون: قال الشيخ، ورجح الشيخ، ونحو ذلك.

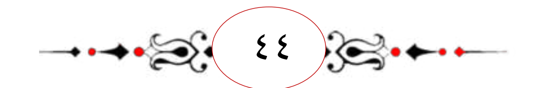
وقد يطلقون لفظ الشيخين ويراد به اثنان من أصحاب المذهب، فيذكرون في كتب الحنابلة أنه إذا قيل قال الشيخان، ورجحه الشيخان، وجرى عليه عمل الشيخين ونحو ذلك، يعنون به ابن قدامة المقدسي -صاحب المغني رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ومجد الدين عبد السلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ جد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

وعند الشافعية المراد بالشيخين: الرافعي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والنووي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

وفي كتب المالكية المراد بالشيخين: القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وشيخه ابن القصار -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

وفي كتب الحنفية المراد بالشيخين: أبي حنيفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وأبي يوسف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- والله أعلم. استفدته من كتاب المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، لمؤلف يقال له: علي جمعة محمد عبد الوهاب.

☆☆☆



اصطلاح لفظة "شيخ "في كتب أهل العلم:

لكل عالم من المؤلفين وشراح الأحاديث مصطلح خاص به في لفظة شيخ، فإذا قال: قال شيخنا، ورجح شيخنا، وسمعت شيخنا ونحو ذلك ولا يذكر اسمه فهذا مصطلح يعرفه من أمعن النظر في كتاب ذلك الإمام والمصنف، وعند الاستقراء والنظر في كتبه، يُعرف أنه يريد به شيخا معينا من مشايخه أكثر مِن مُلازمته، وهو مقدم عنده على غيره من مشايخه، ومثال ذلك: ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- إذا قال: شيخنا فيريد بهذا الإطلاق شيخ الإسلام ابن تيمية-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وعلى هذا فقس في هذه المسألة.



اصطلاح لفظة "شيخ" في عرف القبائل:

وقد تطلق هذه اللفظة ويراد بها كبار القوم من القبائل والعشائر، ومن يجتمع الناس عليه في البلد لحل قضاياهم وما إلى ذلك، فيقال: شيخ قبيلة كذا، وهذا وإن كان غير مشتهر في الأزمنة المتقدمة إلا أنه قد يراد به كبير السن في القوم، وهو المرجع لهم، فيكون من هذا الباب شيخ باعتبار كبر السن، وباعتبار أن الناس اعتادوا على الرجوع إليه، ويسندون الأمور إليه، ويستدل لذلك بما جاء عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ: لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ»، فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي. رواه مسلم، برقم: (٢٥٠٧).

الشاهد قوله: شيخ قريش.

قال الهروي -في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/٤٠٠٦)-: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ: أَيْ: لِكَبِيرِهِمْ وَسَيِّدِهِمْ؟! أَيْ: رَئِيسِهِمْ. اهـ

وشيخنا العلامة المحدث يحيى الحجوري -حفظه الله- يرى أن إطلاق لفظة شيخ على سادة القوم لا أصل له.

فقال -حفظه الله-: أما إطلاق شيخ على سيد قومه فهذا غير مشهور عند

المتقدمين، وإنما المشهور في حق من ساد قومه لفظة: سيّد، كما قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-: «من سيّدكم يا بني سلمة؟!» قالوا: الجد بن قيس غير أنا نبخله. قال: «وأي داء أدوأ من البخل؟! سيدكم عمرو بن الجموح»(٤)، وجاء في حديث آخر: فلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحيِّ، فَسَعَوْا له بكل شيء، لا ينْفَعُه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤلاءِ الرَّهطِ الذين نزلوا بكم، لعلَّ عندهم بعضُ شيء؟ فأتَوْهم، فقالوا: يا أيها الرَّهط! إن سَيِّدَنا لُدِغَ، وسَعَيْنا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: إني والله لأرْقي...

وجاء في السنة إطلاق لفظة: عرفاء -جمع: عريف- على من يطلق عليهم الآن مشايخ القبائل.. والحمد لله. اهـ كما في مجموع فتاوى الكنز الثمين.

قلت: ومن إطلاقات لفظ شيخ في المملكة العربية السعودية أن الجهات في ذلك المكان ينصبون شخصا يقال له: شيخ المعارض، وهو الذي يرجع الناس إليه عند حصول حادث، فيقدر تكلفة الإصلاح بما يكون كلامه يعتمد رسميا في الجهات الحكومية، فيعتمد حكمه بما يحسم المسألة، ويقطع الخصومة والخلاف، وهذا اصطلاح عرفي للفظة شيخ، ولا أصل له.

☆☆☆

التعريف بلفظة "شيخ" في كتب اللغة وأنها قد يراد بها المدح والثناء:

قال ابن منظور -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لسان العرب (٣/٣٢)-: شيخ: الشيْخُ: الَّذِي استبانتْ فِيهِ السِّنُّ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ الشيبُ؛... إلى قوله: وشَيَّخْته: دَعَوْتُه شَيْخاً لِلتَّبْجِيلِ....إلى قوله:

يَحْسَبُه الجاهلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا شَيْخاً عَلَى كُرْسِيِّه مُعَمَّمَا
لَوْ أَنه أَبَانَ أَو تَكَلَّمَا لَكَانَ إِيَّاه وَلَكِنْ أَعْجَمَا

وقال الراغب الأصفهاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المفردات في غريب القرآن (٤٦٩)-: الشَّيْخُ، وقد يعبّر به فيما بيننا عمّن يكثر علمه، لما كان من شأن الشَّيْخِ أن يكثر تجاربه ومعارفه. اهـ

وقال بدر الدين العيني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار (٥/١٢٠)-: والشيخ في اللغة يطلق على من استبانت فيه السنّ، ويقال: من عدىّ خمسين سنةً يسمى شيخًا إلى ثمانين سنة، ثم يصير رهمًّا، ولكن المراد ها هنا من الشيخ: مَنْ تقدم في العلم وإن لم يبلغ حد الشيخوخة في السنن، ويقال: الشيخ مَنْ يصلح أن يُتلمذُ له. اهـ

وقال العلامة البقري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشيته على الرحبية في علم الفرائض للماريديني (ص:٥): قوله الشيخ: جمعه أشياخ وشيوخ، وهو إما مصدر شاخ، أو صفة. وسمي

شيخا لما حوى من كثرة المعاني؛ لأن معناه في الاصطلاح: من بلغ رتبة أهل الفضل ولو صبيا، وأما في اللغة فمعناه: من جاوز الأربعين، وقال الراغب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أصله من طعن في السن. اهـ

وقال شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٢)-: كُلُّ مَنْ أَفَادَ غَيْرَهُ إفَادَةً دِينِيَّةً هُوَ شَيْخُهُ فِيهَا، وَكُلُّ مَيِّتٍ وَصَلَ إلَى الْإِنْسَانِ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَآثَارِهِ مَا انْتَفَعَ بِهِ فِي دِينِهِ فَهُوَ شَيْخُهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، فَسَلَفُ الْأُمَّةِ شُيُوخُ الْخُلَفَاءِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ...إلخ.



مقدمة مهمة فيها النصح لمن أُثني عليه بلفظة شيخ أو غيرها:

إذا مُدح الإنسان بما هو أهله من الخير، وذُكر بما هو عليه من خصال حميدة -دون استشراف، ودون أن يخالطه سمعة ولا رياء ولا عجب، ولا انتظار الجزاء الدنيوي على ما هو عليه من بر وصلاح واستقامة- وابتلي بهذا المدح، سواء نودي بلفظ شيخ أو غير ذلك مما فيه توقير له، واحترام وهيبة، فليجاهد نفسه على الإخلاص وعدم العجب، والزهو بالنفس.

فإذا فعل ذلك ومُدح بما فيه فهذا من القبول الذي قد يجعله الله له في الأرض، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ». رواه البخاري، برقم: (٦٠٤٠) ومسلم، برقم: (٢٦٣٩).

وليعلم أن المدح والثناء عليه يعد نعمة من الله عليه، فليحمده عليها، فهذا من عاجل البشرى له في الدنيا، وليكن ذلك نبراس خير في الجِد والاجتهاد، والسعي في مرضاة الله، فقد جاء عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ». رواه مسلم، برقم: (٢٦٤٥).

ويجب على من مدحه الناس ألّا يحمله ذلك على الكبر والتعالي؛ فهذا وبال عليه،

قال الله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف]،

ويقول سبحانه: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص].

■ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». رواه مسلم، برقم: (٩٢).

■ وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ، كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ». رواه البخاري، برقم: (٦٠٧٢) ومسلم، برقم: (٢٨٥٥).

فيجب على طالب العلم والداعي إلى الله أن يتواضع ويلين الجانب للآخرين، فهذا من أسباب رفعته في الدنيا والآخرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ». رواه مسلم، برقم: (٢٥٩٠).

فنسأل الله أن يستعملنا في طاعته، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

التفصيل في إطلاق لفظة "شيخ" في أوساط طلاب العلم:

أخص الكلام في هذا الموضع -الذي كان سببا في هذا المبحث- حول هذه المسألة المشتهرة جدا عند طلاب العلم في المراكز العلمية، ودور الحديث، وفي لقاءاتهم، وتخاطب بعضهم، وما يكون من إطلاق لها في مقدماتهم والترحيب بها لبعضهم البعض، وهي إطلاق لفظ "شيخ" ويعنون بها المدح والثناء، وهي توحي بأهلية صاحبه في العلم والرجوع إليه في الفتوى.

وقد انقسم الناس في إطلاق لفظة "شيخ" إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المجازف والمحابي.

القسم الثاني: وسط وعدل.

القسم الثالث: معرض جاف.

فالقسم الأول:

أن يُطلق لفظة شيخ على من ليس من أهله، وعلى العوام، أو البادئين في طلب العلم، أو على من يظهر عليه هيئة المستقيمين في لباسه وشكله، مع ضعف علمه أو منهجه، فهذا من المجاوزة والمجازفة، وتجد إطلاق هذا اللفظ "يا شيخ" منتشرا بكثرة عند أهل الأهواء والبدع، فهم يطلقونه على أتباعهم، ويجامل بعضهم بعضا فيها، مع علم كل واحد منهم أنه لا يليق على مثله؛ لعدم أهليته ولا تمكنه من العلم والفتوى وغير ذلك.

وهذا يجر إلى رزية الإقدام على الفتوى، والقول فيها بغير علم، وإلى الإشادة بمن ليس أهلا لتّفقه على يديه، وهذه مصيبة متفشية في هذا الزمان عند الكثير -إلا من رحم الله- وقد جاء عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ اللَّخْمِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلاثَةً: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ». رواه الطبراني في الكبير (٩٠٨)، وغيره، وجوده العلامة الألباني في الصحيحة (٢/ ٣٠٩).

قال الإمام اللالكائي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٩٥) عند هذا الحديث-: **قال ابن المبارك**: الأصاغر من أهل البدع. اهـ

وقال ابن عبد البر -رَحِمَهُ اللَّهُ- في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٢) عند هذا الحديث-: **قال نعيم**: قيل لابن المبارك-رَحِمَهُ اللَّهُ-: من الأصاغر؟ قال: الذين يقولون برأيهم، فأما صغير يروي عن كبير فليس بصغير.

وذكر أبو عبيد في تأويل هذا الخبر عن ابن المبارك أنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البدع، ولا يذهب إلى السن. اهـ

وما أجمل ما **قاله صديق حسن خان** -رَحِمَهُ اللَّهُ- في كتابه الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٣)-: زَمَانَنَا هَذَا الَّذِي ذهب فِيهِ مَاؤُهُ، ونضب رواؤه، وَكثر جاهلوه، وَقل عالموه، لقَالَ مَا قَالَ، فقد نبتت فِي هَذَا الزَّمَان فرقة ذَات سمعة ورياء، تَدعِي لأنفسها علم الحَدِيث وَالْقُرْآن، وَالْعَمَل بهما على العلات فِي كل شَأْن، مَعَ أَنَّهَا لَيست فِي شَيْء من أهل الْعلم وَالْعَمَل والعرفان؛ لجهلها عَن الْعُلُوم الآلية الَّتِي لَا بُد مِنْهَا لطَالب الحَدِيث فِي تَكْمِيل هَذَا الشَّأْن، وَبعدهَا من الْفُنُون الْعَالِيَة الَّتِي لَا مندوحة

لسالك طَرِيق السّنة عَنْهَا كالصرف والنحو، واللغة والمعاني وَالْبَيَان، فضلا عَن كمالات أُخْرَى، وَأَن تشبهوا بالعلماء، ويظهروا فِي زِيّ أهل التَّقْوَى، نظم

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد يُسمى بالفقيه الْمدرس

فَحق لأهل الْعلم أَن يتمثلوا ... بِبَيْت قديم شاع فِي كل مجْلِس

لقد هزلت حَتَّى بدا من هزالها ... كُلَاها وَحَتَّى استامها كل مُفلس

وسئل العلامة ابن عثيمين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: هل يصح أن تطلق كلمة الشيخ لكل أحد من الناس، ولا سيما أن هذه الكلمة أصبحت متفشية، فأرجو توضيح ذلك؟

الجواب:

كلمة شيخ في اللغة العربية لا تكون إلا للكبير، إما كبير السن، أو كبير القدر بعلمه أو ماله أو ما أشبه ذلك، ولا تطلق على الصغير، لكن كما قلت: تفشت الآن حتى كاد يلقب بالشيخ من كان جاهلاً أو لم يعرف شيئاً، وهذا فيما أرى لا ينبغي؛ لأنك إذا أطلقت على هذا الشخص كلمة شيخ وهو جاهل لا يعرف اغتر الناس به، وظنوا أن عنده علماً، فرجعوا إليه في الاستفتاء وغير ذلك، وحصل بهذا ضرر عظيم وكثير من الناس -نسأل الله لنا ولهم الهداية- لا يبالي إذا سئل أن يفتي ولو بغير علم؛ لأنه يرى إذا قال: لا أدري؛ كان ذلك نقصاً في حقه، والواقع أن الإنسان إذا قال فيما لا يعلم: لا أدري كان ذلك كمالاً في حقه، ولكن النفوس مجبولة على محبة الظهور إلا من عصم الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فالذي أرى أنها لا تطلق كلمة شيخ إلا على من يستحقها إما لكبره، أو لشرفه وسيادته في قومه، أو لعلمه، وهذا كما كان بعض الناس الآن يطلق كلمة إمام على عامة

العلماء، حتى وإن كان هذا العالم من المقلدة، يقول: هو إمام، وهذا أيضاً لا ينبغي، ينبغي ألا تطلق لفظ إمام إلا على من استحق أن يكون إماماً، وكان له أتباع، وكان معتبراً قوله بين المسلمين. اهـ من أسئلة لقاءات الباب المفتوح (١١٧).

القسم الثاني:

وهم الوسط والعدل، وفي مثل هذه المسألة يكون المعتبر في إطلاقها: حكم عالم مشهود له بالخيرية، والثبات على السنة، والخبرة وسبر أمور الدعوة والدعاة، وله باع في معرفة الرجال وأحوال الطلاب، وهو معايش لهم، وعنده سبر لأحوالهم، واستفادتهم وتمكنهم من العلم، حينها فإن حسم مثل هذه المسائل وردها لأهل العلم هو الأنسب في حل الخلافات، والله سبحانه أمر بالرجوع لأهل العلم فيما أشكل، فهم أهل الحل والعقد لما أشكل من مسائل وخلافات، سواء مما يكون بين طلاب العلم أو غيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾[الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾[النساء].

فينبغي أن يطاعوا فيما وافق الحق والسداد؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾[النساء].

فأهل العلم من العلماء: هم أهل الورع، وقد ائتمنهم الله على دينه، وأشهدهم على ربوبيته، كما قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾[آل عمران].

وأخبر أنهم أهل خشيته، فقال -سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾[فاطر].

فهذا فيما يظهر هو الأقرب لضبط هذه المسألة، وأن إطلاق لفظ شيخ على طلاب العلم والدعاة والمستفيدين ينبغي أن يُنظر إليها من ناحية الاعتبار بالأصل، وأعني بذلك أن مما تعارف عليه طلاب العلم والدعاة إلى الله: أن من كان مزكى من قبل عالم معتبر - من العلماء الذين يُعَدّون من المرجع في قُطرهِم في النوازل وغيرها، وممن أجمع الناس على فضله وأهليته، وهو من أئمة عصره، وفريد دهره - ثم أطلق لفظة شيخ أو عالم، أو محدث أو فقيه، أو علامة أو فضيلة الشيخ، وما إلى ذلك لمن يستحقها من طلابه الذين خبرهم، وخَبر سيرهم وأهليتهم في الاستفادة العلمية، وذلك من خلال مكثهم بين يديه في مرحلة التحصيل، وأثنى عليه في مقال، أو في مكتوب وغير ذلك، فالأصل في ذلك اعتبار قوله، فهو المرجع في هذا الباب، والأصل أنهم لا يزكون إلا عن علم وخبرة، ومعرفة، وليس لأحد أن يطلق ألفاظا كهذه من طلاب العلم ومن دونهم من البادئين، أو ممن في طبقاتهم، وإنما يطلقها العلماء الذين يرجع إليهم، فإن حصلت التزكية فتطلق، وهذا الذي تعارف عليه

الناس أن من زكاه العلماء بلفظة شيخ يعتبر بذلك.

وقد **سئل فضيلة شيخنا العلامة المحدث يحيى الحجوري** -حفظه الله-: هل تشترط الشهرة لإطلاق لفظ الشيخ على شخص ما؟

الإجابة: إذا نص على ذلك أهل العلم هذا أمر لا بأس به، وإذا كان اشتهر كذلك أيضًا فلا بأس، وإلا فما أدري ما هذه المهاترة على شيخ.

نذكر أنفسنا وإخواننا -وفقهم الله- بقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-: «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١). اهـ(٢).

وسئل فضيلة الشيخ العلامة المحدث مقبل بن هادي الوادعي-رَحِمَهُ اللَّهُ-:

فقال السائل: إطلاق لفظ شيخ أو عالم، أو محدث أو حافظ، ما هو الضابط لهذه الألفاظ، وما هي الشروط الواجب توفرها في الشخص حتى تطلق عليه؟

الجواب: أما مسألة عالم: فالذي يعلم بشيء من العلم ولو في فن من الفنون يُبرِّزُ فيه، فإنك ترى الإمام الذهبي-رَحِمَهُ اللَّهُ- في السير يصف بعضهم بالعلامة وهو أخباري ليس لديه من العلم إلا السّير يعرفها.

وكذلك أيضاً لفظة شيخ لا يمنع أن تكون نسبية، نحن الآن أصبحنا بالصحيح حثالة فنحن على قدر زمننا، من مجتمعاتنا من لا يعلم عن دينه شيئاً، فطالب العلم لا بأس بأن يطلق عليه، نحن نطلق الآن على إخواننا الأفاضل بأنهم مشايخ إغاظة

---

(١) رواه مسلم، وأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، عن زيد بن أرقم -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

(٢) أسئلة من بيت الفقيه، بتاريخ: ٦ صفر ١٤٢٣هـ، ليلة السبت، دماج - دار الحديث.

للمبتدعة، ونذكر ما لديهم من المزايا، وكأنك تضربهم بالسياط إذا أثنيت على إخوانك، هذا يلقبه بأسد السنة، وهذا يلقبه بأنه حكيم، وهذا يلقبه بكذا وكذا، نعم نلقبهم بهذا ونرفع من شأنهم؛ لأن المبتدعة يصفونهم بأوصاف لا يتقون الله فيها، فهم إذا جاء الداعي إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- من أهل السنة حذروا شبابهم، وحذروا المجتمع، ولو أمكن أن يقفوا على باب المسجد ويمنعوا الناس من الدخول إلى المسجد لفعلوا.

لفظة محدث عند المحدثين لا تطلق إلا على من حفظ المسانيد، وحفظ الصحاح أو كذا، لكن لا يمنع - كما ذكر هذا العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره - فالمحدثون في زمن العراقي غير المحدثين في زمن البخاري-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ومع هذا أطلقوا على بعضهم بأنه محدث، ولا بأس نحن الآن في هذا الزمن الذي قد طم الجهل وعم وأصبح الناس لا يعرفون عن السنة شيئاً....إلخ ما قاله. (١)

القسم الثالث:

من حَجَّر واسعا وعنده جفاء في عدم إطلاقها لمن يستحقها ومن كان من أهلها ممن له أهلية في العلم، وحتى لو شهد له بذلك وأطلقها أهل الشأن من العلماء على طلابهم، فهو لا يقتنع بذلك لسبب أو لآخر، فيقال في مثل هذا ما جاء عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ-رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) من شريط: أسئلة السلفيين من أهل صنعاء.

﴿يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات]، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «ذَاكَ اللهُ تَعَالَى». رواه الترمذي، برقم: (٣٢٦٧)، وصححه العلامة الألباني، في صحيح سنن الترمذي (٧/ ٢٦٧)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٦٤).

فالخلاصة في هذا: أنه لا مانع أن تطلق كلمة شيخ على من يستحقها من أهل العلم وأهل الفتوى ممن لهم أهلية في ذلك، دون جفاء وتحرج من إطلاقها، ولا يتساهل في إطلاقها على غيرهم فتضعف هيبة الصادقين من أهل العلم في نفوس العامة ويقل توقيرهم -إذا صارت هذه الكلمة منتشرة للعالم والجاهل سواء-، فطالب العلم والداعي إلى الله -السني السلفي- ينبغي أن يفرح بأخيه، ويثني عليه بالحق، وبما لا إطراء فيه ولا مبالغة ولا جفاء وشدة، وهذا هو الذي جرى عليه عمل السلف.

ومن نماذج ثناء أهل العلم من أقران وغيرهم على بعضهم:

- ما جاء عن أبي الْمِنْهَالِ، قَالَ: سَأَلْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- عَنِ الصَّرْفِ؟ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقُولُ: هَذَا خَيْرٌ مِنِّي، فَكِلَاهُمَا يَقُولُ: نَهَى رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- عَنْ بَيْعِ الذَّهَبِ بِالْوَرِقِ دَيْنًا. رواه البخاري، برقم: (٢١٨١).

- وما جاء عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- قَالَ: قِيلَ لِعُمَرَ: أَلَا تَسْتَخْلِفُ، قَالَ: إِنْ أَسْتَخْلِفْ، فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، أَبُو بَكْرٍ، وَإِنْ أَتْرُكْ، فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ: رَاغِبٌ رَاهِبٌ،

وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ، لَا أَتَحَمَّلُهَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا. رواه البخاري، برقم: (٧٢١٨).

■ وما جاء عن محمد بن أبي بشر، قال: أتيت أحمد بن حنبل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في مسألة، فقال: ائت أبا عبيد، فإن له بيانا لا تسمعه من غيره، فأتيته فشفاني جوابه، فأخبرته بقول أحمد، فقال: ذاك رجل من عمال الله، نشر الله رداء عمله، وذخر له عنده الزلفي، أما تراه محببا مألوفا، ما رأت عيني بالعراق رجلا اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم، فإنه لكما قيل:

يَزِينُـكَ إِمَّـا غَـابَ عَنْـكَ، فَـإِنْ دَنَـا	رَأَيْـتَ لَـهُ وَجْهـاً يَسُرُّـكَ مُقْـبِلا
يُعَلِّـمُ هَـذَا الخَلْـقَ مَـا شَـذَّ عَـنْهُمُ	مِنَ الأَدَبِ المَجْهُولِ كَهْفاً وَمَعْقِلا
وَيَحْسُـــنُ فِي ذَاتِ الإِلَـــهِ إِذَا رَأَى	مَضيماً لأَهْلِ الحَـقِّ لاَ يَسْـأَمُ الـبَلاَ
وَإِخْوَانُــهُ الأَدْنَــوْنَ كُــلُّ مُوَفَّــقٍ	بَصِيرٍ بِـأَمْرِ الله يَسْـمُو عَـلَى العُـلاَ

كما في مناقب الإمام أحمد (١٥٢)، وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/ ٢٠٠).

ومن النماذج العظيمة في ذلك:

■ ما جاء في كتاب علوم الحديث للحاكم (١/ ١١٣) قال: حَدَّثَنِي أَبُو نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنَ حَمْدُونَ الْقَصَّارَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بْنَ الْحَجَّاجِ وَجَاءَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُقَبِّلَ رِجْلَيْكَ يَا أَسْتَاذَ الأُسْتَاذِينِ، وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِينَ، وَطَبِيبَ الْحَدِيثِ فِي عِلَلِهِ...

وإسناده حسن، ورواه من طريق الحاكم الخطيب البغدادي، في تاريخ بغداد

(١٥/ ١٢١)، وابن عساكر، في تاريخ دمشق (٥٣/ ٦٨)، وابن حجر، في تغليق التعليق (٥/ ٤٢٢)، والذهبي في تاريخ الإسلام (١٩/ ٢٤٧).





اعتبار الشهرة في إطلاق لفظة "شيخ":

يتفرع من المسألة المتقدمة تفصيلها مسألة وهي: من اشتهر بإطلاق لفظة "شيخ" وكان من أهلها، ولكن ليس بتنصيص من إمام وعالم معين، وإنما يعرف بذلك من خلال واقعه الذي يعيشه مع العلم، والدعوة إلى الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-، وثباته على الحق والمنهج السلفي، وقِدَمه في الدعوة، واجتهاده في نشر الخير، فهو مقبل على العلم، والرحلة في طلب العلم ما بين حين وآخر، ونشيط في التدريس والتعليم للناس وغير ذلك، أو يكون له إقبال على التأليف والكتابة، وله ردود على أهل الباطل، وله جهود مشكورة في نشر السنة والتوحيد، والعقيدة الصحيحة وغير ذلك مما يشتهر به في أوساط أهل السنة، وهذا يوجد كثيرا.

فمن أهل العلم من أسس دعوته وبنى أمره على الخير والعلم، وله نصرة ونفاح للمنهج الحق، ويثني عليه أهل العلم في نشاطه وما يحويه من خير، واجتمعت كلمة أهل العلم على الإشادة به، والترحيب به في مَقْدَمِة وغير ذلك.

فالخلاصة: أنه قد يشتهر داع إلى الله بالخير وعنده حصيلة وأهليه في كثير من مقامات الدعوة إلى الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- وحينها فلا مانع من أن يوصف بهذا الإطلاق، وأنه شيخ من مشايخ أهل السنة باعتبار قِدَمه بالخير، وباعتبار إقرار أهل العلم والفضل له بذلك؛ لما عُرف به من الأهلية والمكنة التي يستحق من خلالها أن يُزكى بلفظة شيخ، وهذا مما يزيده تمكينا في قُطره والمكان الذي ينشر فيه العلم

والتوحيد، والسنة، فالشهرة هذا ضابطها وميزانها، وبه يزول الإشكال في هذه المسألة -إن شاء الله-.

وممن قال بضابط الشهرة شيخنا العلامة الإمام يحيى الحجوري -حفظه الله- وقد تقدم قوله، ولا بأس أن نعيده هنا.

يقول السائل: هل تشترط الشهرة لإطلاق لفظ الشيخ على شخص ما؟

الإجابة: إذا نص على ذلك أهل العلم هذا أمر لا بأس به، وإذا كان اشتهر كذلك أيضًا فلا بأس...إلخ.



لا يشترط سناً معينا لإطلاق لفظة "شيخ"

ومن خلال بعض التعاريف المتقدمة عن أهل العلم يتبين لنا أن لفظة "شيخ" قد تطلق على جهة المدح لمن كان من أهل العلم، وأنه لا يختص بسن معين، وإنما هو بحسب أهلية صاحبه، وتضلعه في العلوم الشرعية، ورسوخه ونضوجه، فقد تطلق على صغير السن إذا كان من حملة العلم الشرعي، وذا مكنة في العلوم، ولذا نجد أن أهل العلم من السلف الصالح -ابتداء من الصحابة، ومن بعدهم من القرون- إلى وقتنا الحاضر هم ممن كانوا متضلعين بالعلم على صغر سنهم، كابن عباس وابن عمر، وأرسل النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ- أبا موسى ومعاذا إلى اليمن دعاة إلى الله، وعلماء يقودون أمه.

قال صديق حسن خان -رَحِمَهُٱللَّهُ في الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٣٨)-:

وَأما الشَّيْخ: **فَقَالَ الرَّاغِب**: أَصله من طعن فِي السن، ثمَّ عبروا بِهِ عَن كل أستاذ كَامِل وَلَو كَانَ شَابًّا؛ لِأَن شَأْن الشَّيْخ أَن تكْثر معارفه وتجاربه، وَمن زعم أَن المُرَاد هُنَا من هُوَ فِي سنّ يسن فِيهِ التحديث: وَهُوَ من نَحْو خمسين إِلَى ثَمَانِينَ فقد أبعد وتكلف، وَالْتزم الْمَشْي على القَوْل المزيف؛ لِأَن الصَّحِيح أَن مدَار التحديث على تأهل الْمُحدث، حدث البُخَارِيّ وَمَا فِي وَجهه شعر، حَتَّى أَنه رد على بعض مشايخه غَلطا وَقع لَهُ فِي سَنَده، وَقد حدث مَالك وَهُوَ ابْن سَبْعَة عشر، وَالشَّافِعِيّ وَهُوَ فِي حَدَاثَة السن، وَالْحق أَن الْكَرَامَة والفضيلة إِنَّمَا هِيَ بِالْعلمِ وَالْعقل، دون الْعُمر وَالْكبر، فكم من

شيخ فِي سنّ يسن فِيهِ التحديث وَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَى تَمْيِيز الطّيب من الْخَبيث. شعر:

وَعنـد الشَّـيْخ أَجـزَاء كبـار   مجلـدة وَلَكِـن مَـا قراهـا

وَكم من طِفْل صَغِير يفوق الشَّيْخ الْكَبِير فِي الدِّرَايَة، ومَلَكَة التَّحْرِير، وَالله يخْتَص برحمته من يَشَاء. اهـ

قلت: ومن النماذج في بيان أن السن غير معتبر في بلوغ رتبة أهل الفضل:

ما جاء عن مَالِك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ»، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ». رواه البخاري، برقم: (٦٣١)، ومسلم، برقم: (٦٧٥).

الشاهد: أنهم شباب رجعوا دعاة إلى الله، وبِحَثّ وترغيب من النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، والنماذج في هذا الباب كثيرة بما لو أفردها أحد في مصنف لجاءت في كتاب مستقل، في بيان صغار الصحابة، ومن بعدهم من العلماء ممن بلغوا رتبة الإمامة في الدين مع صغر سنهم.

وقد ذكروا في كتب تراجم الصحابة عددا من صغار الصحابة ممن كانوا من أهل العلم على صغر سنهم، وتصدروا للفتوى وتعليم الناس وغير ذلك، ومن أولئك

العبادلة، وهم يعدون من صغار الصحابة، ومع ذلك وصفوا بالعلم، وأنهم من العلماء، ولم يكن السن ميزانا معتبرا في بلوغ رتبة أهل العلم الكبار.

والعبادلة -من صغار الصحابة- هم:

- عبد الله بن عباس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-.
- عبد الله بن عمر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-.
- عبد الله بن الزبير -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-.
- عبد الله بن عمرو -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-.

ثم سار على هذا الحال السلف الصالح، ومن بعدهم من العلماء، وقد وصفوا بالعلم والإمامة في الدين، وأنهم من علماء الإسلام، مع أنه يذكر في تراجمهم صغر سنهم، وربما توفي بعضهم وهو بالثلاثين، ولم يتجاوز الأربعين، وتصدر بعضهم للإفتاء والتعلم، والتدريس وبث العلم، والأخذ عنه والتأليف، وهو دون العشرين من عمره، كالإمام البخاري-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، بل ويذكر في تراجمهم أن الواحد منهم ربما حضر بين يديه كبار السن، ومن لحيته بيضاء، وهو لا يزال شابا أمردا ما عنده لحية.

وممن يذكر بأنه صار من العلماء المبرزين في زمنه على صغر سنه:

شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والشوكاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والإمام النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وتوفي النووي وهو في سن الشباب، وكذا من أئمة النحو سيبويه -

رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، توفي وهو في الثانية والثلاثين من عمره.

وكذلك من نماذج العلماء المتقدمين الذين رسخوا بالعلم مع صغر سنهم، وأطلق العلماء عليهم ألقابا تدل على أنهم من أئمة الدين، وحفاظ الإسلام، الإمام العالم ابن عبد الهادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- صاحب كتاب الصارم المنكي -وهو من أشهر كتبه- ولو رجعت إلى كتب التراجم لرأيت عجبا من ثناء العلماء عليه، من أنه إمام عصره، وفريد دهره، وأنه برع في فنون عديدة، وهو من علماء أهل السنة، وممن له غيرة، وصدع بالحق ونفاح، وهو من أئمة الجرح والتعديل، وتوفي وهو في عمر تسعة وثلاثين سنة -وهذا سن الشباب- وهذا يدل على أنه لم يبلغ هذه المنزلة الكبيرة إلا وقد تحصل في مرحلة صغره على علوم، وبرع فيها منذ نشأته، وهو من أبرز تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، والحافظ المزي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- والذهبي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وغيرهم، وإليك بعضا من ثناء العلماء عليه، **قال الحافظ ابن كثير** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته من البداية والنهاية ط: إحياء التراث (١٤/ ٢٤٤)-: يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ عَاشِرِ جُمَادَى الْأُولَى تُوُفِّيَ صَاحِبُنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ، الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ، النَّاقِدُ الْبَارِعُ فِي فُنُونِ الْعُلُومِ، شَمْسُ الدين.....إلى قوله: وَحَصَّلَ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الشُّيُوخُ الْكِبَارُ، وَتَفَنَّنَ فِي الْحَدِيثِ، وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ، وَالْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ، وَالْأَصْلَيْنِ، وَالتَّارِيخِ وَالْقِرَاءَاتِ، وَلَهُ مَجَامِيعُ وَتَعَالِيقُ مُفِيدَةٌ كَثِيرَةٌ، وَكَانَ حَافِظًا جَيِّدًا لِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ، وَطُرُقِ الْحَدِيثِ، عَارِفًا بِالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، بَصِيرًا بِعِلَلِ الْحَدِيثِ، حَسَنَ الْفَهْمِ لَهُ، جَيِّدَ الْمُذَاكَرَةِ، صَحِيحَ الذِّهْنِ، مُسْتَقِيمًا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُثَابِرًا عَلَى فِعْلِ

الْخَيِّرَاتِ. اهـ

ولأهل العلم ثناء عظيم له غير هذا أنصح بمطالعة ترجمته؛ لأنها تشحذ الهمم، نسأل الله من فضله.

ومن النماذج فيمن صار إماما مع صغر سنه:

ما جاء في ترجمة السبكي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: ، واسمه عبد الْوَهَّاب بن عَليّ بن عبد الْكَافِي، **قال** عنه **أبو بكر الدمشقي** -في طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣/١٠٤)-: الْعَلامَة قَاضِي الْقُضَاة، تَاج الدَّين أَبُو نصر ابن الشَّيْخ الإِمَام شيخ الإِسْلَام تَقِيّ الدّين أبي الْحسن الْأَنْصَارِيّ الخزرجي السُّبْكِيّ...، وَسمع بهَا من جمَاعَة، واشتغل على وَالِده وعَلى غَيره ،وَقَرَأَ على الْحَافِظ الْمزي، ولازم الذَّهَبِيّ وَتخرج بِهِ، وَطلب بِنَفسِهِ ودأب، قَالَ الْحَافِظ شهَاب الدَّين ابْن حجي: أَخْبرنِي أَن الشَّيْخ شمس الدَّين ابْن النَّقِيب أجَازه بالإفتاء والتدريس، وَلما مَاتَ ابْن النَّقِيب كَانَ عمر القَاضِي تَاج الدَّين ثَمَانِيَة عشر سنة، وَأفْتى ودرس، وَحدث وصنف، وأشغل وناب عَن أَبِيه بعد وَفَاة أَخِيه القَاضِي الْحُسَيْن، ثمَّ اسْتَقل بِالْقَضَاءِ بسؤال وَالِده فِي شهر ربيع الأول سنة سِتّ وَخمسين، ثمَّ عزل مُدَّة لَطِيفَة ثمَّ أُعِيد، ثمَّ عزل بِأَخِيه بهاء الدّين وَتوجه إِلَى مصر على وظائف أَخِيه، ثمَّ عَاد إِلَى الْقَضَاء على عَادَته، وَولي الخطابة بعد وَفَاة ابْن جملَة...

إلى قوله: جيد البديهة، ذَا بلاغة وطلاقة لِسَان، وجراءة جنان، وذكاء مفرط،

وذهن وقاد، وَكَانَ لَهُ قدرَة على المناظرة، صنف تصانيف عدَّة فِي فنون على صغر سنة، وَكَثْرَة أشغاله، قُرِئت عَلَيْهِ، وانتشرت فِي حَيَاته وَبعد مَوته.

قال: وانتهت إِلَيْهِ رئاسة الْقَضَاء والمناصب بِالشَّام، وَحصل لَهُ من المناصب مالم يحصل لأحد قبله. اهـ

ومن النماذج فيمن صار إماما مع صغر سنه:

ما ذكره **ابن كثير** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية ط إحياء التراث (١٢/٤٠٥) في ترجمة أبي بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمداني- قال: الْحَافِظُ... صَاحِبُ التَّصَانِيفِ عَلَى صِغَرِ سِنِّهِ، مِنْهَا الْعُجَالَةُ فِي النَّسَبِ، وَالنَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ فِي الْحَدِيثِ وَغَيْرُهُمَا. اهـ

ومن النماذج فيمن صار إماما مع صغر سنه:

ما ذكره **السبكي** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طبقات الشافعية الكبرى(٧/٢٩٧) في ترجمة مَسْعُود بن مُحَمَّد بن مَسْعُود الطريثيثي- قال: الشَّيْخ الإِمَام، أَبُو الْمَعَالِي قطب الدّين النَّيْسَابُورِي، صَاحب كتاب الْهَادِي الْمُخْتَصر الْمَشْهُور فِي الْفِقْه، كَانَ إِمَامًا فِي الْمَذْهَب وَالْخلاف، وَالْأُصُول وَالتَّفْسِير، والوعظ، أديبا مناظرا...

إلى قوله: قَالَ ابْن النجار: وَكَانَ يُقَال إِنَّه بلغ حد الْإِمَامَة على صغر سنة، ودرس بنظامية نيسابور، ثمَّ ورد بَغْدَاد، وَحصل لَهُ بهَا الْقبُول التَّام، ثمَّ جَاءَ إِلَى دمشق وسكنها مُدَّة، ودرس بِالْمَدْرَسَةِ المجاهدية مُدَّة، ثمَّ بالزاوية الغزالية بعد موت أبي الْفَتْح نصر الله المصِّيصِي، ثمَّ خرج إِلَى حلب، وَولى بهَا تدريس المدرستين اللَّتَيْنِ بناهما

نور الدّين وَأسد الدّين، ثمَّ سَافر إِلَى بَغْدَاد، وَمِنْهَا إِلَى همذان، وَولي التدريس بهمذان، وَأقَام بهَا مُدَّة، ثمَّ عَاد إِلَى دمشق.

ومن النماذج فيمن كان إماما مع صغر سنه:

ما ذُكر في ترجمة صاحب كتاب الترغيب والترهيب، **قال الذهبي** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سير أعلام النبلاء ط: الرسالة (٢٠/٨٠)-: التَّيْمِيُّ، أَبُو القَاسِمِ إِسْمَاعِيْلُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الفَضْلِ الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، الحَافِظُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، أَبُو القَاسِمِ إِسْمَاعِيْلُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الفَضْلِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ طَاهِرٍ القُرَشِيُّ، التَّيْمِيُّ، ثُمَّ الطَّلْحِيُّ، الأَصْبَهَانِيُّ، المُلَقَّبُ: بِقِوَامِ السُّنَّةِ، مُصَنِّفُ كِتَابِ التَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ...

إلى قوله: قَالَ أَبُو مُوْسَى المَدِيْنِيُّ: أَبُو القَاسِمِ إِسْمَاعِيْلُ الحَافِظُ إِمَامُ أَئِمَّةِ وَقته، وَأُسْتَاذُ عُلَمَاءِ عَصره، وَقُدْوَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ...

إلى قوله: قَالَ أَبُو مُوْسَى: وَلاَ أَعْلَمُ أَحَداً عَابَ عَلَيْهِ قَوْلاً وَلاَ فِعلاً، وَلاَ عَانَدَه أَحَدٌ إِلاَّ وَنَصره اللهُ، وَكَانَ نَزِهَ النَّفْسِ عَنِ المَطَامعِ، لاَ يَدخُلُ عَلَى السَّلاَطِيْنِ، وَلاَ عَلَى مَنِ اتَّصلَ بِهِم، قَدْ أَخلَى دَاراً مِنْ مُلكِهِ لأَهْلِ العِلْمِ مَعَ خِفَّةِ ذَاتِ يَدِه، وَلَوْ أَعْطَاهُ الرَّجُلُ الدُّنْيَا بِأَسرِهَا لَمْ يَرْتَفِعْ عِنْدَهُ...

إلى قوله: سَمِعْتُ مَنْ يَحكِي عَنْهُ فِي اليَوْمِ الَّذِي قَدِمَ بِوَلَدِه مَيِّتاً، وَجَلَسَ لِلتَّعزِيَةِ، أَنَّهُ جَدَّدَ الوُضُوْءَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ مَرَّاتٍ نَحْوَ الثَّلاَثِيْنَ، كُلُّ ذَلِكَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، وَسَمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِه: أَنَّهُ كَانَ يُمْلِي شَرْحَ صَحِيْحِ مُسْلِمٍ عِنْدَ قَبْرِ وَلَدِهِ أَبِي عَبْدِ

الله، وَيَوْمَ تَمَامِه عَمِلَ مَأْدُبَةً وَحَلاَوَةً كَثِيْرَةً، وَكَانَ ابْنُهُ وُلِدَ فِي سَنَةِ خَمْسِ مائَةٍ، وَنَشَأَ، وَصَارَ إِمَاماً فِي اللُّغَةِ وَالعُلُوْمِ حَتَّى مَا كَانَ يَتقدَّمُهُ كَبِيْرُ أَحَدٍ فِي الفَصَاحَةِ وَالبَيَانِ وَالذَّكَاءِ، وَكَانَ أَبُوْهُ يُفضِّلُه عَلَى نَفْسِهِ فِي اللُّغَةِ، وَجَرَيَانِ اللِّسَانِ، أَمْلَى جُمْلَةً مِنْ شَرْحِ الصَّحِيْحَيْنِ، وَلَهُ تَصَانِيْفُ كَثِيْرَةٌ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ، مَاتَ بِهَمَذَانَ، سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِيْنَ، وَفَقَدَهُ أَبُوْهُ.

وسمعت أحمد بن حسن يقول: كُنَّا مَعَ الشَّيْخِ أَبِي القَاسِمِ، فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِي مَسْعُوْدٍ الحَافِظِ، فَقَالَ: أَطَالَ اللهُ عُمُرَك، فَإِنَّك تَعِيشُ طَوِيْلاً، وَلاَ تَرَى مِثْلَكَ، فَهَذَا مِنْ كَرَامَاتِهِ. اهـ

ومن النماذج فيمن كان إماما مع صغر سنه:

العلامة حافظ حكمي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- توفي وعمره خمسة وثلاثين سنة، وقد وُصف وهو بهذا السن بالعالم العلامة، والحافظ والمفتي، وكان ذا نبوغ وهو في العشرين من عمره، وله نظم في التوحيد والأصول، والعقيدة والحديث، والسيرة وغير ذلك، فمؤلفاته قيمة، وقد اهتم العلماء بها وشرحوها، واعتنوا بها.

وغيرهم كثير، ويطول المقام لذكرهم.

فالشاهد من هذا الكلام: أن السن ليس معيارا في العلم، وإنما هي الأهلية، فقد تجد كبيرا في السن لا يفقه من دين الله كما يفقه من كان صغيرا في السن، وكما قيل:

فَمَا الحَداثَةُ مِن حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ... قد يُوجَدُ الحِلمُ في الشبّانِ وَالشِّيبِ

والأصل في العلم أنه إذا تضلع به من كان كبير السن فإنه يكون أعظم نفعا، وأكثر

فهما ودراية، وخبرة من صغير السن.

وإن كان صغير السن من المشايخ المبرزين فكبير السن من العلماء يفضل عليه، ويقدم عليه في الفتوى وغيرها، وهذا مما لا خلاف في فهمه عند أهل العلم، لما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ». رواه ابن حبان، برقم: (٥٥٩)، وصححه العلامة الألباني، في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢/٤٧)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣٨٠)

- ولحديث ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «أَمَرَنِي جِبْرِيلُ أَنْ أُقَدِّمَ الْأَكَابِرَ». رواه أبو بكر الشافعي، في الفوائد -الشهير بالغيلانيات- (١/٦٨٧)، وصححه العلامة الألباني، في السلسلة (٤/٧٤).

- وعَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَذَبَنِي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الْأَصْغَرَ مِنْهُمَا، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ». رواه مسلم، برقم: (٢٢٧٤).

☆☆☆

خاتمة لمن همه تجميع تزاكي بإطلاق لفظة "شيخ" أو غيرها:

وأختم هذا الموضع بنصيحة مهمة لكل طالب علم، وداع إلى الله: ألّا يكن همه تجميع التزاكي، وانتظار المدح والثناء، وإذا لم يثنَ عليه يغضب، وبعضهم يستشرف للثناء، سواء في مسألة المشيخة أو غيرها، وليُعلم أن كل واحد ستشرحه سيره ودعوته، وحرصه واجتهاده، وثباته على السنة، واستمراره في العلم وعكوفه عليه، فهذا هو الذي يبين حاله وأمره بين الناس.

وينبغي أن نعلم جميعا أن من أخلص في طلبه للعلم أن الله سيجعل له القبول، بل يكفيه شرفا أن يرضى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عنه، فليكن هذا نصب عيني كل طالب علم، ومن أهم المهمات عنده.

فيا طالب العلم! ينبغي أن ترضِ الله بما تطلب من العلم، هذا هو الأصل، فالواجب الذي ينبغي أن يتنه له طالب العلم هو صلاح سريرته، ولا بأس أن يفرح بمدح الناس له؛ وهذا مع مجاهدة النفس ليس محرما، فقد كان الصحابة يفرحون غاية الفرح بمدح النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ- لهم، وهكذا كان العلماء والفضلاء وطلاب العلم يفرحون بمن زكاهم؛ لأن هذا مما يُمكّن لدعوتهم ونصحهم؛ ولأن هذا مما يجعله مصدر ثقة لتلقي العلم عنه، وهذا مما يُعَرَّف به وبأهليته.

وينبغي ألا يكون حريصا على طلب المدح والثناء، فيزرع الشيطان في قلبه حب السمعة، ويتسلط عليه بطلب الشهرة، فيخرجه هذا عن نطاق الإخلاص، فيقعده الشيطان، إن لم يثنَ عليه أحد فَتَرَ وكسل، وأصابه الخمول، وربما ترك العمل الصالح

وغير ذلك، ولينظر كل منا إلى قول الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء]، وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ [الحجرات].

ولنتذكر جميعا ما جاء من وعيد في حق من أراد بعلمه الدنيا، وطلب المدح والثناء من الناس، ومن ذلك:

- ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رواه مسلم، برقم: (٢٩٨٨).

- ومنها ما جاء عَنْ سَلَمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي، يُرَائِي اللهُ بِهِ. رواه البخاري، برقم: (٦٤٩٩)، ومسلم، برقم: (٢٩٨٩)، وجاء عن ابن عباس عند مسلم، برقم: (٢٩٨٨).

- وما جاء عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، حَدَّثَنَا رَجُلٌ فِي بَيْتِ أَبِي عُبَيْدَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو يُحَدِّثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يوم

القيامة، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»، قَالَ: فَذَرَفَتْ عَيْنَا عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-. رواه أحمد في مسنده، برقم: (٦٨٠٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه، برقم: (٣٦٣٠٩)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ١٤٠).

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ: مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ». رواه البخاري، برقم: (٣٢٦٧)، ومسلم، برقم: (٢٩٩٢)، واللفظ له.

وعن كعب بن مالك الأنصاري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». رواه الترمذي، برقم: (٢٦٥٤)، وحسنه العلامة الألباني، في صحيح الجامع (٢/ ١٠٩١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ». رواه ابن ماجه، برقم: (٢٥٤)، وصححه العلامة الألباني لغيره في صحيح الترغيب (١/ ١٥٤)، وقد جاء بنحوه عن أبي هريرة، وحذيفة، وابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِين-.

***

باب: التخاطب بسني سلفي لمن كان من أهلها

إن من نعم الله على المرء بعد أن مَنَّ عليه بالإسلام هو أن يكون متبعا لكتابه وسنة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، ومنهج السلف الصالح من الصحابة ومن اقتفى أثرهم، وهذه التسمية لا تعني الانتماء لحزب من الأحزاب المعروفة التي لها أنظمتها وقوانينها، وهي مخالفة في كثير من سيرها للكتاب والسنة.

وللأسف أن تجد الكثير ينتسب للسلفية ويدعي أنه سني على نهج النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وهذا كما قيل:

وكل يدعي وصلا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك

فليس مقياسا في صدق مدعيها مجرد الانتساب، بل ينظر في صدق قائلها إلى فعله وطريقته وسيره، وموافقته للكتاب والسنة، وسير السلف الصالح ونهجهم، وبهذا تضبط هذه التسمية، ويعرف صدق مدعيها من عدمه.

وأما أصل هذه التسمية فثابت بأدلته، فكلمة سني تعني: الطريقة، وهي مأخوذة من حديث الْعِرْبَاضِ بن سارية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ

الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رواه أبو داود، برقم: (٤٦٠٧) وغيره، وصححه العلامة الألباني في عدة من كتبه، ومنها صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٠)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٤٤٥)، وشيخنا العلامة يحيى الحجوري في شرح الأربعين النووية (١/ ٢٠٥).

وأما أصل تسمية سلفي:

فهي تعني: اتباع طريقة من سلف، وهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وصحابته الكرام -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وأصحاب القرون المفضلة، وأئمة الهدى من بعدهم.

وجاء ما يدل عليها في حديث عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي مَا تُخْطِئُ مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- شَيْئًا، فَلَمَّا رَآهَا رَحَّبَ بِهَا، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَّهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسِّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- سَأَلْتُهَا: مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ: مَا كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ لَمَا حَدَّثْتِنِي مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الْمَرَّةِ

الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي، «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ»، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ: «أَمَا تَرْضَيْ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ. رواه البخاري، برقم: (٦٢٨٥)، ومسلم، برقم: (٢٤٥٢).

فاتضح لنا مما مضى أن من كان متبعا لكتاب الله وسنة رسوله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- بفهم السلف الصالح فهو سني سلفي، ومن كان غير ذلك فهو خَلَفي، هذا مختصر القول في هذه المسألة في هذا المقام.

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حكم الانتماء صفحة (٩٠)-: وإذا قيل السلف أو السلفيون، أو لجادتهم: السلفية: فهي هنا نسبة إلى السلف الصالح، جميع الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-، فمن تبعهم بإحسان، دون من مالت بهم الأهواء بعد الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- من الخلوف الذين انشقوا عن السلف الصالح باسم أو رسم، ومن هنا قيل لهم: الخلف، والنسبة: خلفي، والثابتون على منهاج النبوة نسبوا إلى سلفهم الصالح في ذلك فقيل لهم: السلف، والسلفيون، والنسبة إليهم: سلفي.

وقال -في حلية طالب العلم (ص:١٢)-: كن سلفياً على الجادة على طريق السلف الصالح من الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-، فمن بعدهم ممن قفا أثرهم في جميع أبواب الدين، من التوحيد، والعبادات، ونحوها، متميزاً بالتزام آثار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ،

وتوظيف السنن على نفسك، وترك الجدال والمراء، والخوض في علم الكلام، وما يجلب الآثام، ويصد عن الشرع. اهـ

وقال العلامة محمد أمان الجامي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصفات الإلهية صفحة (٦٤-٦٥)-:

ويتضح مما تقدم أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحاً معروفاً يطلق على طريقة الرعيل الأول، ومن يقتدون بهم في تلقي العلم، وطريقة فهمه، وبطبيعة الدعوة إليه. فلم يعد إذاً محصوراً في دور تاريخي معين، بل يجب أن يفهم على أنه مدلول مستمر استمرار الحياة، وضرورة انحصار الفرقة الناجية في علماء الحديث والسنة، وهم أصحاب هذا المنهج، وهي لا تزال باقية إلى يوم القيامة من قوله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ-: «لا تزال طائفة من أمتى منصورين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم». اهـ

وفي فتاوى اللجنة الدائمة:

يقول السائل: ما هي السلفية، وما رأيكم فيها؟

الجواب: السلفية: نسبة إلى السلف، والسلف: هم صحابة رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ- وأئمة الهدى من أهل القرون الثلاثة الأولى -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ- الذين شهد لهم رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ- بالخير في قوله: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» رواه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم.

والسلفيون: جمع سَلفي نسبة إلى السلف، وقد تقدم معناه، وهم الذين ساروا على منهاج السلف من اتباع الكتاب والسنة، والدعوة إليهما والعمل بهما، فكانوا بذلك

أهل السنة والجماعة.

عضو... عضو... نائب رئيس اللجنة... الرئيس

عبد الله بن قعود... عبد الله بن غديان... عبد الرزاق عفيفي... عبد العزيز بن عبد الله بن باز. اهـ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء الفتوى رقم (١٣٦١).

وسئل العلامة المحدث مقبل الوادعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : بعض الناس إذا قلنا لهم نحن سلفيون، قالوا هذا ما يجوز، واحتجوا بقولكم -في المخرج من الفتنة- أنكم قد تركتم التسمي بالسلفيين رغبة في عدم تكثير الجماعات؟

الجواب:

كلاً يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-، أنا ما أخطئ؟! ليش ما يأخذون بقولي فيما هو أعظم من هذا، بأن الديمقراطية كفر؟ وأن الحزبية وسيلة إلى الديمقراطية؟ وأنه لا يجوز الاختلاط في المدارس رجالاً ونساء؟ ويأخذون بأقوالنا في شأن الدش والتلفزيون وهكذا.

فالمهم الانتساب إلى السلفي، أو إلى السني هذا موجود في الأنساب للسمعاني، من قبل أن يُخلق مقبل بنحو ثمانمائة عام أو أكثر.

فهب أنني أخطأت فخطئي لا يكون حجه، فقد انتسب إلى السلفية من هو خيرٌ مني، وانتسب إلى السنية، وهما بمعنى واحد، سواء قلت أنا سني أو أنا سلفي هما بمعنى واحد -إن شاء الله- معناه: أنا ملتزم بالكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، والله المستعان. اهـ من شريط: أسئلة أهل بيحان.

وأما السلف الصالح فهم الصحابة ابتداء من الخلفاء الراشدين الذين أوصى النبي -صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- باتباع طريقتهم الموافقة لهدية بعد موته، كما جاء لك في حديث العرباض المتقدم، وفيه: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

فمما تقدم تبين لنا معنى لفظ سني سلفي، وأن المقصود بها الإتباع للكتاب والسنة، والبعد عن الأهواء.

وهذه هي التي تسمى بالفرقة الناجية التي جاء وصفها بالنجاة من بين الفرق، كما في الحديث المتواتر عن جمع من الصحابة، منهم أَنَس بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ -صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». رواه ابن ماجه، برقم: (٣٩٩٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٨/ ٤٩٣).

ومما يدل على نجاة هذه الطائفة: ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ، وَمَنْ يَأْبَى؟، قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى». رواه البخاري، برقم: (٧٢٨٠).

ومن وصفها أنها طائفة منصورة واضحة بينة للناس في سيرها الموافق للكتاب

والسنة، فقد جاء عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ».

وفي لفظ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ». رواه مسلم، برقم: (١٥٩).

فإذا علمنا ذلك، **فهل يصح أن يطلق السني السلفي على نفسه هذه التسمية،** فيقول أنا سني سلفي؟ أو يطلقها على غيره فيقول: أيها السني السلفي؟

والجواب على هذا:

نعم، من كان سنيا سلفيا بحق، ومتبع للكتاب والسنة ومنهج السلف، ومطبق ذلك في أقواله وأفعاله، فلا مانع أن يتسمى بذلك أو يتخاطب بذلك مع غيره، وقد كان من طريقة السلف ذكر ذلك في خطابة بعضهم لبعض، وليس هو كما يقوله بعض من لا علم له أن هذا يُعد تزكية للنفس ومدحا، ومثل هذا يقال له: هل أنت مسلم مؤمن؟ فإن قال: نعم، فقل له: فهل معنى هذا أنك زكيت نفسك ومدحتها بما ليس فيها؟!

وإليك مختصر القول في هذه المسألة من كلام العلامة الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ- فقد وجه له سؤال هذا نصه: بعض إخواننا الدعاة يقول: أنا أرفض أن أقول: أنا سلفي، خشية أن الناس تنظر إلي نظرة حزبية، فهل هذا الكلام صحيح، أم أن عليَّ أن أبين للناس

السلفية؟

فأجاب العلامة الألباني بقوله:

جرت مناقشة بيني وبين أحد الكُتّاب الإسلاميين الذين هم معنا على الكتاب والسنة، أرجو من إخواننا طلاب العلم أن يحفظوا هذه المناقشة؛ لأن ثمرتها مهمة جداً.

قلت له: إذا سألك سائل: ما مذهبك؟ ما هو جوابك؟

قال: مسلم.

قلت: هذا الجواب خطأ.

قال: لم؟

قلت: لو سألك سائل: ما دينك؟

قال: مسلم.

فقلت: أنا ما سألتك أولاً ما دينك؟ أنا سألتك ما مذهبك؟ وأنت تعلم أن في الأرض الإسلامية اليوم مذاهب كثيرة وكثيرة جداً، أنت معنا في الحكم على بعضها بأنها ليست من الإسلام في شيء إطلاقاً، كـالدروز مثلاً، والإسماعيلية، والعلوية ونحوهم، مع ذلك فهم يقولون: نحن مسلمون، وهناك طوائف أخرى قد لا نقول: إنها خرجت من الإسلام، وإنما لا شك أنها تكون من الطوائف الضالة التي خرجت في مسائل كثيرة عن الكتاب والسنة، كـالمعتزلة، والخوارج، والمرجئة والجبرية ونحو ذلك، ما رأيك أهذا موجود عندك اليوم أم لا؟

قال: نعم.

قلت: فإذا سألنا شخصاً من هؤلاء الأشخاص: ما مذهبك؟

سيقول قولك متحفظاً: مسلم، فأنت مسلم وهو مسلم، إذاً نحن نريد أن توضح في جوابك عن مذهبك بعد إسلامك ودينك؟

قال: إذاً أنا مذهبي الكتاب والسنة.

قلت: أيضاً هذا الجواب لا يكفي.

قال: لم؟

قلت: لأن من ذكرناهم يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون، ولا أحد منهم يقول: أنا لست على الكتاب والسنة، فمثلاً: هل الشيعة يقولون: نحن ضد الكتاب والسنة؟ بل يقولون: نحن على الكتاب والسنة، وأنتم منحرفون عن الكتاب والسنة، فلا يكفي يا أستاذ أن تقول: أنا مسلم على الكتاب والسنة، فلا بد من ضميمة أخرى، فما رأيك: هل يجوز أن نفهم الكتاب والسنة فهماً جديداً، أم لابد أن نلتزم في فهم الكتاب والسنة ما كان عليه السلف الصالح؟

قال: لا بد من ذلك.

قلت: هل أنت تعتقد أن أصحاب المذاهب الأخرى -من كان خارجاً عن الإسلام ويدعي الإسلام، ومن كان لا يزال في دائرة الإسلام لكنه ظل عن بعض أحكامه- هل تعتقد أنهم يقولون معك ومعي: نحن على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح؟

قال: لا. لا يشتركون معنا.

قلت: إذاً أنت لا يكفي أن تقول: أنا على الكتاب وعلى السنة، لابد من ضميمة أخرى.

قال: نعم.

قلت: إذاً ستقول: على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح.

والآن نأتي إلى بيت القصيد.

قلت له -وهو رجل أديب وكاتب-: هل توجد كلمة واحدة في اللغة العربية تجمع لنا إشارة إلى هذه الكلمات كلها: مسلم، على الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، مثلاً: أنا سلفي؟

قال: هو كذلك.

وأسقط في يده، هذا هو الجواب، فإذا أحد أنكر عليك فقل له هذا الكلام الذي ذكرناه وأنت ماذا؟ سيقول لك: مسلم، وأكمل بقية المناقشة معه.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اهـ

من تفريغ سلسلة الهدى والنور للشيخ الألباني (١١/٧٢٥).

وسئل **فضيلة شيخنا العلامة المحدث يحيى الحجوري** -حفظه الله- فقال السائل: قائل يقول: أنتم تسمون أنفسكم بأهل السنة، وهذه تزكية، والله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢]؟

الإجابة: إذا قال السني العامل بالكتاب والسنة: إنه سني سلفي فهذه حقيقة

ليست تزكية مذمومة، وإذا قال من ليس بعامل بالكتاب والسنة إنه سني فهذا ادعاء مذموم، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، والتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل أمر قديم في زمن الصحابة ومن بعدهم، بل قد جاء في الحديث: «وَمُحَمَّدٌ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ»، أي: بين الحق والباطل، وترى أهل العلم إذا ترجموا لواحد يذكرون هل هو سني أو لا، ويميزون أهل الأهواء.

الصوفية تقول: مسلمون؛ إلَّا من بلغ حد الكفر والشرك بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، والشيعة أيضًا مسلمون إلَّا من بلغ حد الكفر منهم كالرافضة ونحوهم، والحزبيون مسلمون إلا من كان من الأحزاب الكافرة من أهل هذه الملة، وكل الثنتين والسبعين فرقة مسلمون لا يجوز اعتقاد كفرهم، ومع ذلك ليسوا من أهل السنة؛ فالتمييز مطلوب، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم]. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص]. اهـ من أسئلة من أسلم وجياح - محافظة حجة - دماج - دار الحديث.

✩ ✩ ✩

باب: من الاحترام أن يتبادل الناس التخاطب بالكنية

ومن جملة الآداب في التخاطب: أن يناديه بالكنية حتى لو كان من أولي الفضل من العلماء والمشايخ، فليس هذا بنقص، فقد كان الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- ينادون النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بكنيته فيقولون: يا أبا القاسم.

ففيه أن من أدب التخاطب مع الآخرين مناداة بعضهم البعض بالكنية، سواء كانوا من أولي الفضل في تخاطب بعضهم مع بعض أو غيرهم.

والأدلة في هذا المعنى كثيرة، فقد كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ينادي أكثر الصحابة بذلك فيقول: يا أبا بكر، يا أبا ذر، ويا أبا موسى، ويا أبا أيوب، ويا أبا هريرة، وكذا كان الصحابة ينادي بعضهم البعض يا أبا عبد الرحمن لعبد الله بن عمر، ويا أبا حمزة لأنس، وهكذا ينادي الصحابة من بعدهم بالكنية، وكل من جاء بعدهم من العلماء والفضلاء يتخاطبون بها مع بعضهم، وهذا يكون أكثر احتراما من أن ينادى باسمه مجردا.

ومما يُذكر عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في هذا الباب أنه قال: ثَلاثٌ يُصَفِّينَ عَلَيْكَ مِنْ وُدِّ أَخِيكَ: أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيتَهُ، وَتُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَتَدْعُوَهُ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٠٤).



باب: ما جاء في احترام الوالدين في التخاطب وغيره

وردت أدلة كثيرة في وجوب بر الوالدين، وجاء الوعيد الشديد لمن أساء في التعامل معهما، وبالمقابل جاء الفضل الكثير لمن أحسن في صحبتهما، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[النساء].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[الأحقاف].

وعن عَبْدِ اللهَّ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، سَأَلْت رَسُولَ اللهَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهَّ»، فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللهَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي. رواه البخاري، برقم: (٢٧٨٢) ومسلم، برقم: (٨٦).

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة لا تخفى، وإنما شاهدنا في هذا الموضع:

أن من جملة الآداب الواجبة في احترامهما عدم رفع الصوت في مخاطبتهما، أو التضجر، والتأفف منهما، فهذا مع كونه إساءة أدب فكذلك يعد من العقوق التي يأثم بسببها الابن، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[الإسراء].

فتأمل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وقد ذكر المفسرون معان عجيبة عند هذه الآية مما يدل على عظيم هذا الأمر.

قال البغوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في تفسيره ط: إحياء التراث (٣/١٢٧): وَهِيَ كَلِمَةُ كَرَاهِيَةٍ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَصْلُ التُّفِّ وَالْأُفِّ: الْوَسَخُ عَلَى الْأَصَابعِ إِذَا فتَلْتَهَا.

وَقِيلَ: الْأُفُّ: مَا يَكُونُ فِي المغابن من الوسخ، والتف: مَا يَكُونُ فِي الْأَصَابعِ.

وَقِيلَ: الأف: وسخ الأذن، والتف: وسخ الأظفار.

وقيل: الأف: وسخ الظفر، والتف: مَا رَفَعْتَهُ بِيَدِكَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: وَلَا تَزْجُرْهُما، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾: حَسَنًا جَمِيلًا لَيِّنًا، قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: كَقَوْلِ الْعَبْدِ الْمُذْنِبِ لِلسَّيِّدِ الْفَظِّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تسميهما ولا تكنهما، وقل لهما: يَا أَبَتَاهُ يَا أُمَّاهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا إِذَا بَلَغَا عِنْدَكَ مِنَ الْكِبَرِ مَا يَبُولَانِ فَلَا تَتَقَذَّرْهُمَا، وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ حِينَ تُمِيطُ عَنْهُمَا الْخَلَاءَ وَالْبَوْلَ كَمَا كَانَا يميطانه عنك صغيرا. اهـ

فليكن المسلم منتبها لهذا الأمر في تعاملاته مع والديه عند كل لقاء أو تواصل بهما،

ويحاسب نفسه ما بين الحين والآخر.

ومن الآداب في التخاطب مع الوالدين: أن لا يناديها باسميها مجردة، بل من كمال الهيبة أن يقول: يا أبي، أو يا أبتي، ويا والدي، ويا أمي، ويا أماه، ويا والدتي، ونحو ذلك مما هو توقير واحترام لهما، فقد جاء عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَوْ غَيْرِهِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَبْصَرَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ لأَحَدِهِمَا: مَا هَذَا مِنْكَ؟ فَقَالَ: أَبِي، فَقَالَ: لا تُسَمِّهِ بِاسْمِهِ، وَلا تَمْشِ أَمَامَهُ، وَلا تَجْلِسْ قَبْلَهُ. رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٢)، بَابُ: لَا يُسَمِّي الرَّجُلُ أَبَاهُ، وَلَا يَجْلِسُ قَبْلَهُ، وَلَا يَمْشِي أمامه، وصححه الإمام الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٤٦).

وهذا هو خلق أنبياء الله مع آبائهم عند مخاطبتهم لآبائهم، فهذا إبراهيم قال الله عنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾[مريم].

وقال عن أحد أبناء إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

وقال عن يوسف: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾[يوسف].

وقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ

قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ [يوسف].

وقال عن إخوة يوسف: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف].

وقال: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف].

وقال: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف].

وقال عن بنات عم موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص].

وقال عن نبيه سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل].

وقال عن نبي الله عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم].

★ ★ ★

باب: من الاحترام مناداة ذوي الهيئات من أمراء وأصحاب مهن وغيرهم بما يناسبهم

قد يتخاطب المسلم مع أحد من أصحاب المهن ممن يكون طبيبا، أو مهندسا، أو يكون مسئولا، أو من عمّال ولي الأمر، أو مع من هو من سادات القوم، وكبراء العشائر وغيرهم، فمن الأدب أن يُنادى كل منهم بما يوحي بتوقيره واحترامه، وإنزاله بالخطاب بما يتعارف عليه الناس أنه من الاحترام والتوقير، ولا يناديه بالاسم مجردا، بل يستعمل معه لفظا طيبا، ومن أمثلة ذلك ما ذكر الله عن إخوة يوسف -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- حين أتوه -ولم يعرفوا حينها أن من يخاطبوه هو أخوهم وقد صار عزيز مصر- قال الله عنهم -في حسن خطابهم له-: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف].

فلم ينادوه باسمه، بل نادوه بلفظ يوحي بتوقيره، وهذا مما يعين على لين الجانب والإنصات للمُخاطِب.

ومن أمثلة ذلك أيضا: أن الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- كانوا ينادوا أبا بكر بيا خليفة رسول الله، وكذا ينادون من بعده من الخلفاء بيا أمير المؤمنين لعمر وعثمان، وعلي -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-.

ومن ذلك: مخاطبة كبار القوم والقبائل بلفظ يوحي بتبجيلهم، وقد جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ أَهْلَ قُرَيْظَةَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إِلَيْهِ، فَجاءَ فَقَالَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، أَوْ قَالَ خَيْرِكُمْ»، فَقَعَدَ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: «هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ»، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِمَا حَكَمَ بِهِ المَلِكُ». رواه البخاري، برقم: (٦٢٦٢)، ومسلم، برقم: (١٧٧٠).

- وَعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا. يَعْنِي: بِلَالًا. رواه البخاري، برقم: (٣٧٥٤).

- وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: قال أبوها أَبُو بَكْرٍ...: لَا، وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ... رواه البخاري، برقم: (٣٦٧٠).

- وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: ... قَالَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا... رواه البخاري، برقم: (٣٩١١).

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ

بَعْضِهِمْ شَيْءٌ فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ... وذكر الخبر. رواه البخاري، برقم: (٢٢٧٦)، ومسلم، برقم: (٢٢٠٤).

فمن علمت أنه طبيب فقل له: يا طبيب، ومن كان مهندسا: يا مهندس، ومن كان بائعا للعطر فينادى: بيا حامل المسك، ومن كان من شيوخ القبائل وساداتهم فناده: بيا سيد، وعلى هذه فقس في التعاملات مع أصحاب المهن، فهذا من جملة الأخلاق الحسنة التي تورث الاحترام والتوقير، وطيب النفوس، وهي آداب عامة للرجال والنساء، صغارا كانوا أم كبارا.

تنبيهان:

التنبيه الأول:

ما الجمع بين ما مضى من جواز قول سيد، وبين حديث مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: أَنْتَ وَالِدُنَا، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَفْضَلُنَا عَلَيْنَا فَضْلا، وَأَنْتَ أَطْوَلُنَا عَلَيْنَا طُولا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، لا تَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ» -وقد تقدم تخريجه-

الجواب: أن هذا من باب التواضع منه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، والخوف من أن يجرهم هذا إلى الغلو والتجاوز، وإلا فقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أُتِيَ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه البخاري، برقم: (٤٧١٢)،

ومسلم، برقم: (١٩٦).

التنبيه الثاني:

ما الجمع بين ما مضى من جواز قول سيد لمن ساد قومه، وبين ما جاء عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ -عَزَّ وَجَلَّ-». رواه أبو داود، برقم: (٤٩٧٧)،

قلنا: هذا الحديث ضعيف، ففيه انقطاع بين قتادة وعبد الله بن بريدة، وقد أعله الشيخ مقبل -رَحِمَهُ اللَّهُ- في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص:٧١).

وعلى فرض ثبوته فمعناه: لا يطلق لفظ سيد على الكافر والفاسق، وأما من عداهم من المسلمين وكبراء القوم منهم فلا بأس بذلك؛ لثبوت الأدلة في إطلاقه عليهم. هذا ملخص كلام العلماء في هذه المسألة.



باب: من ألفاظ الاحترام في التخاطب بين المسلمين قول "يا أخي"

من أشرف صيغ التخاطب بين الناس قول يا أخي، سواء لمن عرف أو لمن لا يعرف من المسلمين، فالأخوة في الدين من أعظم وأشرف ما ينادى بها، والله يقول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[الحجرات].

■ ويقول -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾[ص].

■ وَعَنْ عَبْدَ الله بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- أَنّ رَسُولَ الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ». رواه البخاري، برقم: (٦٩٥١)، ومسلم، برقم: (٢٥٨٣).

■ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». رواه مسلم، برقم: (٢٥٦٥).

والأدلة في هذا المعنى كثيرة، وإنما هذه إشارة: أن أصل لفظ يا أخي مما ينبغي أن يسود بين الناس في تخاطبهم، فهو يوحي باحترام وإجلال في تعاملات المسلمين،

فمن التقى بأخيه فليقل له: يا أخي، والمرأة تقول لغيرها: يا أختي، سواء كانت هذه الأخوة من النسب، أو كانت في الدين، ما دام وهي تعامل مسلم مع مسلم فهذه أخوة إيمانية، وهي التي توجب المحبة والنصرة، والولاء.

ومن النماذج الجميلة في ذلك:

ما ذكره الله عن المتخاصمين إلى نبي الله داود -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾[ص].

فتأمل هذا الخلق الكريم في حال تخاصمهما وهما في غاية الاحترام لبعضهما البعض، مما يدل على أدب التخاطب مع الآخرين، فلم يذكره باسمه مجردا، بل قال: ﴿أَخِي﴾ وهو لفظ دال على توقير واحترام، وهذا مما يجعل الخصم يلين لخصمه ويتنازل ويرق له، بخلاف ما إذا خاطبه بلفظ يوحي بالغلظة والتحقير له، والتصغير من شأنه.

☆☆☆

باب: مناداة الصغير بـ "يا ابن أخي" ولو لم يكن قريبا له:

وكان هذا من خلق العرب، أنهم ينادون الصغير بيا ابن أخي، وإن لم يكن ابن أخيه على الحقيقة، وإنما هذا مما يلفت انتباه الصغير ويشجعه، ويجعله أكثر إصغاء لما يلقى له، فمن الجميل أن يتحلى به الكبار مع الأبناء؛ فهذا مما يكسب احترامهم لمن هم أكبر سنا منهم، والأدلة في هذا الشأن كثيرة:

▪ فعن المسيب بن رافع الأسدي، قَالَ: لَقِيتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فَقُلْتُ: طُوبَى لَكَ صَحِبْتَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَبَايَعْتَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْنَا بَعْدَهُ. رواه البخاري، برقم: (٤١٧٠).

▪ وعَنْ نَافِعٍ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَحُجَّ عَامًا، وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرُكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَقَدْ عَلِمْتَ مَا رَغَّبَ اللَّهُ فِيهِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ... الحديث. رواه البخاري، برقم: (٤٥١٥)، ومسلم، برقم: (١٧).

▪ وعَنه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تُقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَغْتَرُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا أُقَاتِلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْتَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] إِلَى آخِرِهَا. رواه البخاري، برقم: (٤٦٥٠).

■ وقالت خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- لورقة بن نوفل لما ذهبت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إليه: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- خَبَرَ مَا رَأَى. رواه البخاري، برقم: (٤٩٥٤)، ومسلم، برقم: (٤٦٥٠).

■ وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ جَنَابَةٍ صَبَّ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ حَفَنَاتٍ مِنَ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ: إِنَّ شَعْرِي كَثِيرٌ، قَالَ جَابِرٌ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، كَانَ شَعْرُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَكْثَرَ مِنْ شَعْرِكَ، وَأَطْيَبَ. رواه البخاري، برقم: (٢٥٢)، ومسلم، برقم: (٣٣٢) واللفظ لمسلم.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ، إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ»، قُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا سَأَلْتَنِي، فَقَالَ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ». رواه مسلم، برقم: (٥١٢).

وهل هذا يشمل المرأة، بأن تنادي الصغيرات من البنات بيا ابنت أختي؟

الجواب: لا مانع، فهو خلق نبيل، شامل للرجال والنساء، القصد هو أن يلاطف

الأبناء من قبل الكبار بما يرجى أن يكون من أسباب تشجيعهم وتعودهم على الآداب، فيكبروا وهي مغروسة في أذهانهم.





باب: من الاحترام في التخاطب بين الأصحاب قول "صاحبي":

هذا اللفظ يشعر بالاحترام الكبير بين الأصحاب، وينبئ على خلق جميل، فهو يعني القرب منه، والمحبة له، والاهتمام به، والعناية بمودته، ولهذا كان هذا خلق النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مع صحابته الكرام -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِين- وكذا خلق أصحابه من بعده.

ومن النماذج في ذلك:

■ ما جاء عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا. رواه البخاري، برقم: (٣٦٦١).

■ ومن ذلك: إطلاقها لجبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فقد جاء عَنْ أُمِّ أَيُّوبَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: نَزَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَتَكَلَّفْنَا لَهُ طَعَامًا فِيهِ بَعْضُ الْبُقُولِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا، فَإِنِّي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنْكُمْ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُوذِيَ صَاحِبِي». رواه ابن حبان، برقم: (٢٠٩٣)، وغيره، **وقال الإمام الألباني** -في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢/ ٤٧٨): حسن صحيح.

☆☆☆

باب: الاحترام بين الزوجين في التخاطب وغيره:

إن من أجل النعم التي امتن الله بها على عباده نعمة الزواج الذي هو السكن والأنس، والسعادة والهدوء والاستقرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]، وهذه النعمة مما يقرر الله بها عباده يوم القيامة، فعَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَيَلْقَيَنَّ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ؟ أَلَمْ أَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ أَلَمْ أُزَوِّجْكَ فُلانَةَ، خَطَبَهَا الْخُطَّابُ فَمَنَعْتُهُمْ وَزَوَّجْتُكَ؟»

وفي لفظ: «أَيْ فُلُ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، أَلَمْ أُسَوِّدْكَ، أَلَمْ أُزَوِّجْكَ، أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَتْرُكْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، قَالَ: فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ». رواه ابن حبان، برقم: (٧٤٢٥)، وبرقم: (٧٣٦٧)، وصححه العلامة الألباني، في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٠/ ٣٧٠) و(٧/ ٦٢).

ومن هذا المنطلق ينبغي على الزوجين الصالحين أن يرعيا هذه النعمة، وأن تسود في حياتهما المحبة والألفة، والاحترام لبعضهما، وأن يكون الزوج محسنا في تعاملاته، رحيما كريما، صالحا في أقواله وأفعاله معها، وخاصة الكلمة الطيبة فهي مع كونها

عبادة -لما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صدقة». رواه أحمد في مسنده، برقم: (٨٠٤٩)- فهي أيضا من الإحسان للمرأة التي أوصى بها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أمته.

■ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا». رواه البخاري، برقم: (٣٣٣١)، ومسلم، برقم: (١٤٧٠).

■ وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَّرَ وَوَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ». رواه ابن ماجه، برقم: (١٨٥١)، وحسنه الإمام الألباني في الإرواء، برقم: (١٩٩٧)، وآداب الزفاف، برقم: (١٥٦).

■ وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَامَ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ، وَبَنَاتُكُمْ، وَخَالاتُكُمْ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ وَمَا تُعَلَّقُ يَدَاهَا الْخَيْطَ، فَمَا يَرْغَبُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ». رواه الطبراني في الكبير، برقم: (٦٤٨)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة (٨٧٣/٦).

ولا يجوز له أن يخاطبها بما يسوؤها من عبارات وألفاظ، فعن حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوِ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبْ

الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ». قَالَ أَبُو دَاوُد: وَلَا تُقَبِّحْ: أَنْ تَقُولَ: قَبَّحَكِ اللهُ. رواه أبو داود، برقم: (٢١٤٢)، وصححه العلامة الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٩٧)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٤٩).

وكذلك يجب على الزوجة أن تكون مهذبة في طباعها، راقية في أخلاقها، متعاملة معه بتوقير واحترام، فلا ترفع صوتها ولا تغضب، ولا تغدر ولا تخن، ولا تخالف أمره ونهيه إن كان لا يخالف الكتاب والسنة، ولا تؤذه بقول ولا فعل، فقد جاء الوعيد في ذلك كما في حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا». رواه الترمذي، برقم: (١١٧٤)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٠٧).

وقد جاء في المرأة التي تحسن التعامل مع زوجها الفضل الكبير:

- فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ». رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٩)، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٢/ ٩٧١)، وفي آداب الزفاف، برقم: (٢٨٦).

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَوْ كُنْتُ

آمِرًا أَحدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها». رواه الترمذي، برقم: (١١٥٩)، وصححه العلامة الألباني في إرواء الغليل، برقم: (١٩٩٨).

وعنِ الْحُصَيْنِ بْنِ مِحْصَنٍ، أَنَّ عَمَّةً لَهُ أَتَتْ النَّبِيَّ فِي حَاجَةٍ، فَفَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟» قَالَتْ: مَا آلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قَالَ: «فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ». رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٤١)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ٢٢٠)، وآداب الزفاف، برقم: (٢٨٥).

والمرأة ما سميت ودودة؛ إلا لأنها ذات تودد واحترام، وأدب لزوجها، ولها فضل عظيم إن كانت بهذا الوصف، فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْوَدُودُ الْوَلُودُ، الْعَئُودُ عَلَى زَوْجِهَا، الَّتِي إِذَا آذَتْ أَوْ أُوذِيَتْ، جَاءَتْ حَتَّى تَأْخُذَ بِيَدَ زَوْجِهَا، ثُمَّ تَقُولُ: وَاللهِ لا أَذُوقُ غُمْضًا حَتَّى تَرْضَى». رواه النسائي في الكبرى، برقم: (٩٠٩٤)، وصححه بشواهده العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٥٧٨).

ولتعلم الزوجة الموفقة أن مفتاح كسب قلب زوجها الكلمة الطيبة، فعند النداء له لا تجرده باسمه، بل تتخير ألفاظا يحب أن يُنادى بها، فتقول: يا زوجي، ويا شريك حياتي، ويا أبا فلان، وغير ذلك من الألفاظ المتعارف عليها مما فيه إجلال واحترام للزوج، سواء كان ذلك في مراسلتها له، أو حال تخاطبها معه، وهذا هو خلق المرأة الصالحة، وبه تكسب ود زوجها، ولا يعلم البتة أن أزواج النبي -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كن ينادين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- باسمه مجردا، فحري بالمسلمة أن تتأسى بهن في هذا الخلق.

ومما جاء فيها يوحي بتوقير الزوج: وصفه بالسيد قال الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[يوسف]. سيدها: أي زوجها.

فإذن الزوج سيد، فتناديه بيا سيدي ونحو ذلك، وهذا هو الأصل.

ومن النماذج الرائعة في تعامل الزوجة مع زوجها في الخطاب ما جاء عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني -رَحِمَهُ اللَّهُ- قَالَ: قَالَتِ امْرَأَةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: مَا كُنَّا نُكَلِّمُ أَزْوَاجَنَا إِلا كَمَا تُكَلِّمُوا أُمَرَاءَكُمْ: أَصْلَحَكَ اللهُ، عَافَاكَ اللهُ. رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩٨).

وكذلك الزوج الأولى والأفضل ألا يجرد في خطابه اسم زوجته، بل يناديها بألفاظ توحي بمحبته واحترامه لها، فهذا مما يأسر قلبها، فيناديها: يا أم فلان، أو يا زوجتي، ويا امرأتي ونحو ذلك.



باب: في تخاطب إخوة النسب بألفاظ توحي بتوقير بعضهم:

الأخوة والأخوات من النسب يحتاج كلٌ تجاه الآخر تبادل الاحترام، ومن ذلك مناداة كل واحد منهم لأخيه بلفظ يقتضي توقيره وإجلاله، سواء بلفظ يا أخي، أو ما إلى ذلك، وسواء كان ذلك حال الرضى أو الغضب.

ومن النماذج الطيبة في التعامل بهذا الخلق:

ما ذكره الله عن موسى مع أخيه هارون -عَلَيْهِمَا السَّلامُ-، فقال: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾[القصص].

هذا في حال الرضى شفع موسى بأن يكون أخاه نبيا، **قال أهل العلم:** وهذه أعظم شفاعة على الإطلاق في الدنيا.

ومن توقير هارون لموسى واحترامه له: مخاطبته حال غضبه بلفظ فيه ترقيق قلبه؛ ليذهب غضبه وشدته عليه في ذلك الوقت، فقال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عنه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه]

شاهِدُنا توقير هارون لموسى ومناداته في الخطاب بيا ابن أم، أي: يا ابن أمي، وهذا يشعر بعظيم ما يرقق قلب موسى، ويطيب نفسه، ويهدئ من غضبه.

باب: ما جاء في تعاهد الأبناء بالنصح على خلق الاحترام:

العناية بتعليم الأبناء الآداب والجلوس معهم لهذا الأمر ما بين الحين والآخر ثمرته مرجوة -بإذن الله- في مستقبلهم، فيتعلمون آداب عبادتهم لربهم، وآداب التعامل مع الناس، سواء في جانب التخاطب والاحترام للآخرين، أو في غيره، وكان من سنن الأنبياء -صلوات الله عليهم- الاجتماع مع الأبناء لإرشادهم لما ينفعهم، فهذا يعقوب -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يجمع أبناءه ليعلمهم التوحيد، وما يجب عليهم من حق لله تعالى، فقال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[البقرة].

وكذلك جمع أولاده مرة لينصح لهم، ويرشدهم، ويشير لهم بأنه لا يملك لهم إلا النصح والتوجيه، ويذكر لهم فضل التوكل على الله تعالى، قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[يوسف].

وهكذا أرشد ولده يوسف ببعض الإرشادات حين رأى تلك الرؤيا، فوجهه لما فيه مصلحته، كما قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف].

فنستفيد من الآية: توجيه الوالد لولده، وتعليمه الخير، وإرشاده لما ينفعه.

وإن تعاهد الأبناء وإرشادهم لما ينفعهم من الآداب الدينية، والتعاليم الإسلامية لمن حسن الرعاية، وكل أب وأم مسئول عن ذلك أمام الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[التحريم].

وعن عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهَّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». رواه البخاري، برقم: (٢٤٠٩)، ومسلم، برقم: (١٨٣٠).

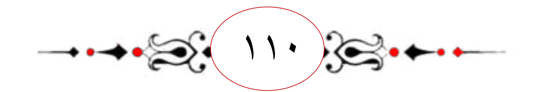


باب: ما جاء في وصايا لقمان الحكيم لولده بخلق الاحترام:

لقمان الحكيم كان من عباد الله الصالحين، وقد ضرب في تربية لولده أروع الأمثلة التي قصها الله علينا في كتابه، وهو يعظ ولده، ويغرس فيه العقيدة الصحيحة، ويرشده للآداب الحميدة، والأخلاق الكريمة مع ربه ومع خلقه، فقال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[لقمان].

وصايا عظيمة، جامعة نافعة، من أب موفق، مرشد ناصح لأبنائه، فهذا نموذج للآباء أن يكون لهم عناية بتوجيه الأبناء وتعليمهم، والنظر في سلبياتهم وتقويمهم، وتعويدهم على الخير، وعلى محاسن الأخلاق.





باب: ما جاء في أدب الأبناء في حضرة أولي الفضل:

ضرب الصحابة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ- أروع الأمثلة في الأدب مع الكبار منذ صغرهم، حتى صار سجية لهم وطبعًا.

ومن النماذج التربوية في ذلك:

ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَا تَحُتُّ وَرَقَهَا»، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ-: «هِيَ النَّخْلَةُ»، فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِي قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَهَا؟ لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: مَا مَنَعَنِي إِلَّا أَنِّي لَمْ أَرَكَ وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا فَكَرِهْتُ. رواه البخاري، برقم: (٦١٤٤)، ومسلم، برقم: (٢٨١٣).

فتأمل هذا الخلق الجميل، وهذه الخصلة النبيلة من هذا الصحابي الكريم عبد الله بن عمر بن الخطاب-رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، كيف كان دأبهم في الأدب في حضرت الكبار، بينما رأى أبوه أنه لو تكلم وأجاب لكان أحب إليه، وهذا أمر فطري بأن الوالد يحب أن يرى ولده متفوقا، ولكنه ربّى ولده عبد الله على لزوم السكينة في مجالس أهل الفضل إن كان صغيرا، أو أقل منهم علما، ولا يسابق ويسارع، ويقحم نفسه للتصدر في مجالس الكبار.

باب: من الاحترام ملاطفة الأبناء ومناداتهم بما يحبون عند الخطاب:

من الخلق الحسن ملاطفة الصغار -سواء كانوا أقرباء للأولاد أم كانوا أجانب، وسواء كانوا طلاب علم أم عوام-، وأن يدخلوا السرور عليهم، وهذا من أسباب التشجيع لهم، ويفرض عليهم الاحترام للكبير، ويتعودوا من خلال هذه التربية على أن ينشئوا على إجلال من هو أكبر منهم؛ لتأثرهم بخلقه وتعامله، فلا بأس أن ينادي الكبير الصغير بيا بني، ويا ولدي، ويا فتى، ويا غلام ونحو ذلك مما يوحي بحسن التعامل معه في الخطاب، وهذا هو خلق نبينا -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ-، فقد جاء عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ- بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ أَصْغَرُ الْقَوْمِ، وَالْأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الْأَشْيَاخَ»، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. رواه البخاري، برقم: (٢٣٥١)، ومسلم، برقم: (٢٠٣٢).

فانظر كيف أعطاه النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ- اهتماما، واستأذن منه، بينما عادة الناس عدم الاهتمام في مثل هذا الموضع بالصغار، فهذا يعد درسا ينبغي أن يتخلق به الناس مع من هم أصغر منهم من الأبناء، وينادوا بمثل هذا الخطاب، بيا غلام، وهذا كثير في خطاباته -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ- للأبناء الصغار، فعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ- وَكَانَتْ يَدِي

تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ. رواه البخاري، برقم: (٥٣٧٦)، ومسلم، برقم: (٢٠٢٣).

■ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه الترمذي، برقم: (٢٥١٦)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥/ ٤٩٧)، والعلامة الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٣٣٤).

■ وعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قال: جَاءَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي أَهْلِنَا وَرَجُلٌ يَشْتَكِي خُرَاجًا بِهِ أَوْ جِرَاحًا، فَقَالَ: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: خُرَاجٌ بِي قَدْ شَقَّ عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ ائْتِنِي بِحَجَّامٍ... وذكر الحديث. رواه البخاري، برقم: (٥٦٨٣)، ومسلم، برقم: (٢٢٠٧).

ومن ذلك: قول يا بني.

■ فقد جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- «يَا بُنَيَّ». رواه مسلم، برقم: (٢١٥٣)، وبوب عليه النووي بقوله: بَاب جَوَازِ قَوْلِهِ لِغَيْرِ ابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، وَاسْتِحْبَابِهِ لِلْمُلَاطَفَةِ.

- والمرأة كبيرة السن في خطابها للأبناء تقول: يا بُني، ولا مانع من ذلك، فقد جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ [المرسلات]، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، وَاللهِ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ، إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ. رواه البخاري، برقم: (٧٦٣)، ومسلم، برقم: (٤٦٤).

- وعن عبد الله بن كيسان القرشي -مَوْلَى أَسْمَاءَ-، عَنْ أَسْمَاءَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أَنَّهَا نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ عِنْدَ الْمُزْدَلِفَةِ، فَقَامَتْ تُصَلِّي، فَصَلَّتْ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَتْ: يَا بُنَيَّ، هَلْ غَابَ الْقَمَرُ؟ قُلْتُ: لَا، فَصَلَّتْ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَتْ: يَا بُنَيَّ، هَلْ غَابَ الْقَمَرُ؟ قُلْت: نَعَمْ، قَالَتْ: فَارْتَحِلُوا، فَارْتَحَلْنَا، وَمَضَيْنَا حَتَّى رَمَتِ الْجَمْرَةَ، ثُمَّ رَجَعَتْ فَصَلَّتِ الصُّبْحَ فِي مَنْزِلِهَا، فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَنْتَاهُ، مَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ غَلَّسْنَا، قَالَتْ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَذِنَ لِلظُّعُنِ ...، وذكرت الحديث. رواه البخاري، برقم: (١٦٧٩)، ومسلم، برقم: (١٢٩٣).

- ومن هذا الباب أيضا تكنية الأبناء ومناداتهم في الخطاب بذلك، ومن أروع الأمثلة في ذلك ما جاء عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ صغير يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ قَالَ: أَحْسِبُهُ فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ...، الحديث. رواه البخاري، برقم: (٦٢٠٣)، وبرقم: (٦١٢٩).



وفي الحديث: تكنية الصغار.

وفيه: مناداة الكبار للصغار بالكنية.

وفيه: ملاطفة الصغير والمزاح معه، وتسليته.

وفيه: خلق التواضع مع الصغار.

وفيه: بذل شيء من الوقت للأطفال.

فالخلاصة: إخواني الكرام، ملاطفة الأبناء ثمرتها مستقبلا طيبة، تزرع فيه الأدب، والأخلاق الحسنة.



باب: من ا لإحترام أن ينادي الصغير للكبير بـ"يا عم" ولا يجرده باسمه:

وهذا أدب وخلق جميل ينبغي أن يتعوده الناس مع من هم أكبر منهم سنًا، فمن كان أكبر سنا ينبغي أن يحترم، وأن لا يجرد بالخطاب باسمه، بل يكون بلفظ يوحي بتوقيره، سواء بقول: يا عم أو بغيره مما يتعارف عليه الناس، وينبغي خاصة أن يتعود على هذا الخلق الأبناء مع كبرائهم من أولي الفضل وغيرهم، فقول يا عم هذا من عادة العرب استعمالها مع الكبار، وإليك بيان بعض الأدلة في ذلك:

■ عن أسعد بن سهل الأنصاري، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ بْنَ سَهْلٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: صَلَّيْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَوَجَدْنَاهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ، فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي صَلَّيْتَ؟ قَالَ: الْعَصْرُ، وَهَذِهِ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الَّتِي كُنَّا نُصَلِّي مَعَهُ. رواه البخاري، برقم: (٥٤٩)، ومسلم، برقم: (٦٢٦).

■ وعَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ وَذَكَرَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، قَالَ: أَتَى أَنَسٌ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-وَقَدْ حَسَرَ عَنْ فَخِذَيْهِ وَهُوَ يَتَحَنَّطُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ، مَا يَحْبِسُكَ أَنْ لَا تَجِيءَ، قَالَ: الْآنَ يَا ابْنَ أَخِي، وَجَعَلَ يَتَحَنَّطُ، يَعْنِي: مِنَ الْحَنُوطِ، ثُمَّ جَاءَ فَجَلَسَ فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ انْكِشَافًا مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ: هَكَذَا عَنْ وُجُوهِنَا حَتَّى نُضَارِبَ الْقَوْمَ، مَا هَكَذَا كُنَّا نَفْعَلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِئْسَ مَا عَوَّدْتُمْ أَقْرَانَكُمْ. رواه

البخاري، برقم: (٢٨٤٥).

▪ وعَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مِنْ حُنَيْنٍ، بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ، قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ، فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟... إلخ. رواه البخاري، برقم: (٤٣٢٣)، ومسلم، برقم: (٢٥٠١).

▪ وعن عبد الرحمن بن عوف الزهري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنْ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي: مِثْلَهَا...إلخ. رواه البخاري، برقم: (٣١٤١)، ومسلم، برقم: (١٧٥٥).

قال العيني -رَحِمَهُ اللَّهُ- في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٥/٣٦)-: قَوْله: يَا عَم، بِكَسْر الْمِيم، وَأَصله: يَا عمِي، فحذفت الْيَاء، وَهَذَا من بَاب التوقير وَالْإِكْرَام لأنس، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَمه على الْحَقِيقَة. اهـ

وقال الإمام النووي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرحه على مسلم (٢/٢٠٣): وهذه عَادَةُ الْعَرَبِ فِي آدَابِ خِطَابِهِمْ، يُخَاطِبُ الصَّغِيرُ الكبير بياعم؛ احْتِرَامًا لَهُ؛ وَرَفْعًا لِمَرْتَبَتِهِ. اهـ

باب: من الاحترام أن الكبير يشيد بالصغير في مجالس أهل الفضل:

ومن أنواع الاحترام الذي ينبغي أن يتحلى به أولو الفضل من المشايخ والعلماء، والدعاة إلى الله: أن يشيدوا بها عند الصغير -صاحب العلم- ويشجعوه، فهذا مما يزيده إقبالا وحبا للخير، فبعض طلاب العلم -سواء كانوا صغارا أم كبارا- في مجالس العلم يفرح، وترتفع همته لو ناداه المعلم باسمه وسأله، وجعله يشارك في مجلسه، وإذا أجاب ذكره بخير، فهذا مما يشحذ الهمم، فقد أدركنا هذا في مجالس علمائنا، فكنا نجد سعادة وتنافسا في الخير، والاستعداد للإجابة، وما إن يصعد الشيخ إلا وتجد كل طالب مستعد للإجابة على ما سيطرحه الشيخ من الدروس التي أخذناها في اليوم الأول، وشاهدنا أن التشجيع في هذا الأمر جرى عليه عمل أسلافنا الكرام.

ومن النماذج في ذلك:

ما جاء عن ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا؟ فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ

رَسُولِ اللهِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ- أَعْلَمَهُ اللهُّ لَهُ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ " رواه البخاري، برقم: (٤٢٩٤).

وفيه: اصطحاب الأولاد إلى مجالس العلم ومجالس أهل الفضل من العلماء والمشايخ وفيه أن الولد لو حضر مجالس الكبار أنه ينبغي عليه أن يتأدب ولا يزاحم ويشارك فيما يتكلم به الكبار حتى ولو كان يعلم إلا إن طُلب منه.

وفيه: تشجيع الكبير للصغار، وفيه الإشادة بأهل الفضل والعلم من الصغار في حضرة الكبار من أهل الفضل.

وفيه: أنه لا يصطحب إلى مجالس أهل الفضل من الأبناء إلا من كان عاقلا هادئا مؤدبا محبا للعلم، وفيه أنه لا بأس أن يذكر الإنسان ما عنده من خير مع أمن الفتنة، فابن عباس -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- هو من حكى هذه القصة عن نفسه، ومما قال: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي.

وفيه: تأدب الصغير إذا شد عليه الكبير بكلام يحزنه ولا يرد وليسكت ولا يبرر لنفسه إلا فيما لابد منه، وفيه سعة علم ابن عباس الحبر البحر ترجمان القرآن.

ومن الأدلة في بيان أن التشجيع من المعلم وصاحب الفضل لمن دونه من الطلبة ومناداته باسمه وفرحه بذلك ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ- لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللهَّ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١]، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَبَكَى. رواه البخاري،

برقم: (٤٩٦١)، ومسلم، برقم: (٢٤٧٦).

ومن النماذج في تشجيع الأبناء وإعطائهم أهمية:

ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرٍ، فَكُنْتُ عَلَى بَكْرٍ صَعْبٍ لِعُمَرَ، فَكَانَ يَغْلِبُنِي، فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ الْقَوْمِ فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ، وَيَرُدُّهُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ، وَيَرُدُّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: لِعُمَرَ: «بِعْنِيهِ»، قَالَ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بِعْنِيهِ»، فَبَاعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ». رواه البخاري، برقم: (٢١١٦).

***

باب: من لم يجد تشجيعا وتحفيزا ومدحا من الآخرين فلا يتثبط:

قد لا يجد الولد أو طالب العلم عموما تشجيعا، وإنما قد يجد من يحاول قطع الطريق عليه، فيثبطه بعبارات معقدة، وبألفاظ تدمر نفسيته للمواصلة في الخير، ففي هذا الحال نوصي بعدم المبالاة، وليكن الطالب والولد مقبلا على الخير، غير ملتفت لمن يريد زعزعته، فقد يأتيه من يقول له: أنت لا تنفع للعلم، أنت غير حافظ، أنت لا تصلح للدعوة إلى الله، أنت لست أهلا لأن تكون شيخا ومستفيدا، أو مؤلفا باحثا، وغير ذلك مما يمليه الشيطان على قطاعين الطريق فيلقونها على المجتهدين أصحاب الهمم العالية، فهنا ليكن الْمُخاطب رابط الجأش، شامخ الهامة، مستعينا بالله، متوكلا عليه، غير مبالٍ بتثبيط حاسد، ولا بسخرية حاقد، ولا بسماع من بضاعته كاسدة.

ومن النماذج العظيمة والدروس النافعة في ذلك:

ما جاء عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ: يَا فُلَانُ، هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَإِنَّهُمْ الْيَوْمَ كَثِيرٌ، فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مَنْ تَرَى؟! فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنْ الْحَدِيثِ، قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَى

أَعْقَلَ مِنِّي. رواه الدارمي في سننه، برقم: (٥٩٠)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

وفيه من الفوائد: أن طالب العلم قد يجد تثبيطا في تحصيل العلم.

وفيه: تشجيع الطلاب لبعضهم البعض فابن عباس شجع صاحبه.

وفيه: أن الطالب ينبغي أن يأخذ بيد أصحابه لمجالس العلم.

وفيه: استغلال الفرص في تحصيل العلم من الأكابر.

وفيه: أن صغير العلم المجتهد في تحصيله غدا هو كبير العلماء.

وفيه: الرحلة في طلب العلم.

وفيه: أن طالب العلم في مرحلة التحصيل قد يتعب فينبغي عليه أن يصبر.

وفيه: ملاطفة المعلم والشيخ لطلابه، ورفع شأنهم وتشجيعهم.

وفيه: تواضع المعلم للطالب.

وفيه: مناداة الطالب بلفظ يوحي بالثناء عليه، فقد قال له: يا ابن عم رسول الله.

وفيه: أنه لا مانع من زيارة المعلم في بعض الأوقات لطلابه.

وفيه: أن من الأبناء من يرزقه الله حب العلم، ويكون شغوفا به أكثر من الكبار.

وفيه: أن العلم يؤتى إليه ويسعى في تحصيله.

وفيه: أن من تأخر في طلب العلم ولم يجتهد يسبقه أقرانه فيندم.

وفيه: أن الرفعة والتمكين تكون لمن اجتهد في طلب العلم.

إلى غير ذلك ما في هذه القصة من الفوائد، وإنما اقتصرنا على الأهم منها اختصارا.



باب: من الاحترام لكبيرة السن أن يناديها من في مقام ولدها بلفظ يوحي بالتوقير:

من الخطاب الحسن لكبيرات السن -من في مقام الأمهات والجدات- ألَا يخاطبن بتجريد أسمائهن، بل يخاطبهن من في مقام أبنائهن بلفظ يوحي بتوقيرهن إما بكنيتهن: يا أم فلان، أو يا أمي، أو يا أماه، أو يا جدتي، أو يا عمتي، أو يا خالتي ونحو ذلك مما تعارف عليه الناس أنه من أدب الاحترام مع كبيرات السن، وقد كان هذا خلق الصحابة مع كبيرات السن.

فعَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّونَ: لَا يَجِبُ الْغُسْلُ إِلَّا مِنَ الدَّفْقِ، أَوْ مِنَ الْمَاءِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: بَلْ إِذَا خَالَطَ، فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ، قَالَ: قَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فَأُذِنَ لِي، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهْ، أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ، وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكِ، فَقَالَتْ: لَا تَسْتَحْيِي، أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتَ سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، أَنَا أُمُّكَ، قُلْتُ: فَمَا يُوجِبُ الْغُسْلَ؟ قَالَتْ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ، فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ». رواه مسلم، برقم: (٣٥٢).

فتأمل في هذا الخبر، فأبو موسى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لا قرابة بينه وبين أم المؤمنين، ولكن من الأدب مع أُمنا عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ناداها بهذا، وهي قالت: إنما أنا أمك، أي: بمقام أمك، والله تعالى يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ

وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ [الأحزاب].

وهو وإن كان من هذا الباب ينادونها، إلا أن هذا فيما يظهر لي عام معهن ومع غيرهن، وهو مما تعارفوا عليه مع كبيرات السن والله أعلم.

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، فَقُلْتُ: يَا أُمَّاهُ، حَدِّثِينِي بِشَيْءٍ سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الطَّيْرُ يَجْرِي بِقَدَرٍ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ». رواه ابن حبان، برقم: (٥٨٢٤)، وحسنه العلامة الألباني في التعليقات الحسان (٨/ ٢٨٥).

والأدلة في هذا كثيرة من إطلاق الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- لفظ يا أماه على أُمنا عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

✭✭✭

باب: الكفار ليسوا إخوة للمسلمين فلا يخاطبون بذلك:

وأما الكفار فليسوا بإخوة للمسلمين لا في دينهم، ولا فيما يزعم بعضهم من الأخوة الإنسانية الطينية، إلا أن تكون أخوة في النسب(١)، وعليه فلا يجوز أن يناديهم المسلم بهذا اللفظ، فيقول: يا أخي، لا في الترحيب به، ولا في تألفه، ولا في معاملاته، وللأسف قد سمعنا، واشتهر عند من يعيشون في دول الكفر من المسلمين أنهم صاروا على هذا الحال في مناداة الكافر بيا أخي، ونحو ذلك مما يوحي بتوقيره واحترامه، ورفع منزلته.

والله –سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ– يقول: ﴿ڱ ڲ گ گ ڳ ڳ

---

(١) قال الإمام القرطبي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١٣/١١٩) في قوله تعالى: ﴿hş hŢ hţ h3 3﴾ [الشعراء:١٠٦]– أَيِ: ابْنُ أَبِيهِمْ وَهِيَ أُخُوَّةُ نَسَبٍ لَا أُخُوَّةُ دِينٍ. وَقِيلَ: هِيَ أُخُوَّةُ الْمُجَانَسَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿Û hÙ hù hø hÃ hã Ã﴾ [إبراهيم:٤].

وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي الْأَعْرَافِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ. يُرِيدُونَ يَا وَاحِدًا مِنْهُمْ. الزَّمَخْشَرِيُّ: وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا. اهـ

وفي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ÐzÐz bz Ǵ﴾ [هود:٥٠]. أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيِ ابْنُ أَبِيهِمْ. وَقِيلَ: أَخَاهُمْ فِي الْقَبِيلَةِ. وَقِيلَ: أي بشرا من بني أبيهم آدم. اهـ تفسير القرطبي (٧/٢٣٥).

ں ں ڭ ڭ ۃ ۃ ﴾[التوبة].

فمفهومه: أنهم إن لم يؤمنوا ولم يلتزموا ما أمر الله به فإنهم ليسوا بإخوان للمسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: فعلق الأخوة في الدين: على التوبة من الشرك، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. والمعلق بالشرط ينعدم عند عدمه.

فمن لم يفعل ذلك فليس بأخ في الدين، ومن ليس بأخ في الدين فهو كافر، لأن المؤمنين أخوة مع قيام الكبائر بهم، بدليل قوله في آية المقتتلين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]. اهـ من شرح عمدة الفقه (٢/ ٦٤).



باب: لا كرامة لكافر ولا احترام في خطاب:

قد ذم الله أهل الكفر من يهود ونصارى، وأهل الشرك والإلحاد، قال الله تعالى:

﴿ƚ ƙ ƛ ƙ ƀ Ǖ ƙ ! ƙ ǅ ƙ Ǆ ƙ ǆ ƙ Ǉ ƙ ǈ ƙ ǉ ƙ ǋ ƙ ǌ ƙ ĳ﴾[الأنفال].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾[البينة].

وقال سبحانه: ﴿ǐ ƙ Ǐ ƙ Ǒ ƙ ǒ ƙ Ǔ ƙ ǔ ƙ ǖ ƙ ǘ ƙ ǚ ƙ ǜ ƙ ǟ ƙ ű ƙ Ű ƙ ű ƙ﴾

﴿ə ƙ Ǟ ƙ ǟ ƙ Ǡ ƙ ǡ ƙ Ǣ ƙ ǣ ƙ Ǥ ƙ ǥ ƙ Ǧ ƙ ǧ ƙ Ǩ﴾[الجمعة].

وقال: ﴿ƚ ƙ ƚ ƙ ƙ ƙ ƙ ƙ ƚ ƙ ƛ ƙ Ɯ ƙ Ɲ ƙ ƞ ƙ Ɵ ƙ Ơ ƙ ơ ƙ ɋ﴾[التغابن].

وقال سبحانه: ﴿Ʈ ƙ Ư ƙ ư ƙ Ʊ ƙ Ʋ ƙ Ƴ ƙ ƴ ƙ Ƶ ƙ ƶ ƙ Ʒ ƙ ƺ ƙ Ƹ ƙ ƹ ƙ ƺ ƙ ƻ ƙ Ƽ ƙ ƽ ƙ ƾ ƙ ƿ ƙ ǀ﴾[المائدة].

والآيات في تحقير الكفار وتصغير شأنهم كثيرة جدا.

ومن هذا الباب أيضا عدم احترامهم، فالأصل أنه يشد عليهم ويغلظ، وأنهم لا يحترمون، بل يشتد في عداوتهم، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ [الفتح].

وقال سبحانه: ﴿ƕ η ƕ Ɲ ƕ Ɯƕ ƛ ƕ ƚ ƕ ƙ ƕ Ƙ ƕ ƚ ƕ l

ƨ ƕ Ʀ ƕ ƥ ƕ Ƥ ƕ ƣ ƕ Ƣ ƕ ơ ƕ Ơ﴾[التوبة].

وقال سبحانه: ﴿ƕ η ƕ Ɲ Ɯƕ ƛ ƕ ƚ ƕ ƙ ƕ Ƙ ƕ ƚ ƕ l

¼ ú ﴿ƫ ƪ Ʃ Ƣ ½ ơ ƕ Ơ Ɵ

وكان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ‌آلِهِۦوَسَلَّمَ- يغلظ عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿ƕ ǭ ƕ Ǭ

ǳ ƕ Ǳ ƕ Ǆ ƕ ǰ ƕ ʒ ƕ Ʒ﴾[الزمر].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ‌آلِهِۦوَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».

رواه مسلم، برقم: (٢١٦٩).

فهذا هو الأصل في تعاملات المسلمين مع الكفار، لا يبدؤوهم بالسلام، وهذا من الولاء والبراء الذي ذكر الله تعالى، خلافا لما ذهب إليه بعض المغفلين ممن اغتر بأخلاقهم، فصار يمدحهم ويثني عليهم، وهذا من ضعف البصيرة، إذ لو كان عاقلا لعلم أنهم أساؤوا في أدبهم مع ربهم، وأشركوا معه غيره، فعن أي أدب يتحدث!!.

والخلاصة: أن الشدة على الكفار هذا هو الأصل فيه، ثم يستثنى من ذلك:

- من يرجى إسلامه، كما فعل النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ‌آلِهِۦوَسَلَّمَ- مع اليهودي، فعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ‌آلِهِۦوَسَلَّمَ- فَمَرِضَ،

فَأَتَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ». رواه البخاري، برقم: (١٣٥٦).

وكما قال سبحانه وتعالى لموسى وهارون عند إرسالهما إلى فرعون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[طه].

- أو ما كان لحاجة، كمن احتاج للبيع والشراء، والتعامل في ذلك معهم، وكان بضوابطه الشرعية، بما لا يرفع من منزلتهم.



باب: لا كرامة لمبتدع ولا احترام في خطاب:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ». رواه أبو داود، برقم: (٨٦٩١)، وحسنه العلامة الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ- في الصحيحة (٦/ ٥٦٤).

وهذا الحديث أصل من أصول أهل السنة في هجر أهل البدع والأهواء، وعدم مجالستهم والخلطة بهم، ولا السلام عليهم ولا الترحيب بهم، وكتب السلف زاخرة في بيان ذمهم لأهل البدع، والتحذير منهم وعدم احترامهم.

قال أيوب السختياني -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قَالَ لِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلَمْ أَرَكَ مَعَ طَلْقٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، فَمَا لَهُ؟ قَالَ: لَا تُجَالِسْهُ فَإِنَّهُ مُرْجِئٌ. السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٢٣)، والشريعة للآجري (٢/ ٦٨١).

وقال أبو قلابة -رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ أَدْرَكَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، أَوْ قَالَ: أَصْحَابَ الْخُصُومَاتِ؛ فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ. الشريعة للآجري (٢/ ٤٣٥).

وقال سفيان الثوري -رَحِمَهُ اللَّهُ-: مَنْ جَالَسَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لِغَيْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَقَعَ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ يَزِلُّ بِهِ فَيُدْخِلُهُ النَّارَ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ: وَاللهِ لَا أُبَالِي مَا تَكَلَّمُوا بِهِ، وَإِنِّي وَاثِقٌ بِنَفْسِي، فَمَنْ أَمِنَ اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ عَلَى دِينِهِ

سَلَبَهُ إِيَّاهُ. الاعتصام للشاطبي (١/ ١٧٢).

قال يحيى بن أبي كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: إِذَا لَقِيتَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فِي طَرِيقٍ فَخُذْ فِي طَرِيقٍ آخَرَ. الشريعة للآجري (١/ ٤٥٨).



باب: ذكر رسالتي الأولى التي كانت سببا في التوسع بهذه الرسالة:

تقدم وذكرت في مقدمة هذا الكتاب أن الحامل لي على هذه الرسالة والتوسع فيها هو ما أشار به علي بعض المشايخ الفضلاء -حفظهم الله- بعد نشر رسالة فيها نصيحة للآباء تتعلق بخلق التوقير في الخطاب للكبير من أهل الفضل وغيرهم، وسأنقل في هذا الموضع رسالتي تلك بتمامها، وقد عنونتُ لها بقولي:

«نصيحة بتعويد الأبناء على توقير أهل الفضل وإنزال كل منزلته في التخاطب والتعامل».



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد جاء عن عبد الرحمن بن عوف -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يذكر خبر قتل أبي جهل يوم بدر- قال: فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟.....إلخ ثم قال الآخر مثله... وذكر قصة مقتله. والحديث رواه البخاري ومسلم.

وجاء عن أبي أمامة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: صَلَّيْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فَوَجَدْنَاهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ، فَقُلْتُ: يَا

عَمِّ، مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي صَلَّيْتَ؟ قَالَ: الْعَصْرُ، وَهَذِهِ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الَّتِي كُنَّا نُصَلِّي مَعَهُ. متفق عليه.

شاهدنا من هذين الحديثين قوله: "**يا عم**"، وهناك غيرهما، مما يدل على أصل قول يا عم لمن هو أكبر سنا، وتوقير من كان من أهل الفضل والصلاح.

قال الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وقوله له: يا عم، هو على سبيل التوقير، ولكونه أكبر سنا منه، مع أن نسبهما مجتمع في الأنصار، لكنه ليس عمه على الحقيقة. اهـ من فتح الباري.

وقال الإمام النووي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وهذه عادة العرب في آداب خطابهم، يخاطب الصغير الكبير بيا عمّ احتراما له، ورفعا لمرتبته. اهـ من شرحه على مسلم.

قلت: إن هذا الخلق خُلقٌ نبيل، وخصلة محمودة، أنصح وأخص بها إخواننا أهل السنة، بأن يعودوا أبناءهم عليها في التعامل مع من هم أكبر منهم سنًا، سواء ممن هم في مقام آبائهم، أو من كان منهم من أهل الفضل من مشايخ ومعلمين.

فإن مما يشين الولد في سن الصغر، أو في بداية شبابه، وخاصة إن كان من أبناء المشايخ والدعاة، وطلاب العلم وأهل الخير، مناداة شيخه باسمه مجردا دون استعمال لفظ يا عم، أو يا شيخ، أو يا أستاذ، أو يناديه بكنيته يا أبا فلان وغير ذلك، وهذا مما يُعاب عليه في النفس، ويستقبحه السامع، وقد يستحي منه المنادى، وخاصة إن كان ذلك أمام العوام والله المستعان.

فإننا نرى أن يضبط هذا، وخاصة بين طلاب العلم، فإنه من كمال الأدب، ومن

الخلق الحسن الذي يربي الولد عليه منذ الصغر، فيعنى به؛ لأنه من جملة الأخلاق الحسنة التي تكسب المرء وقارا وأدبا، وهذا يعود بالخير على الوالد المربي؛ فإنه هو من أدّبه وهذبه، فيُذكر بالخير بين الناس؛ لِمَا يرون من أخلاق ولده الحسنة.

ومما دعاني للكتابة، وحز في نفسي ما رأيت وسمعت من أن بعض الأبناء في مجالس بعض الشيوخ، أو عند اللقاء بالمدرسين، أو بأهل الفضل يناديه بيا فلان، أو يا أخ، أو بلقبه.... الخ؟! دون استعمال لفظ فيه توقير له، وثناء عليه، وإنزاله منزلته مما يثير العجب! ويجعل السامع يشعر وكأن ذلك الولد بمرتبته في الفضل، وفي سن مقارب له، مع أنه في الواقع يكون في بداية بلوغه، أو حديث عهد ببلوغ، أو يكون حديث عهد بطلب علم، أو هو طالب لايزال في مرحلة التحصيل للبدائيات وغير ذلك، فهو يتعامل معه وكأنه بمرتبته! بينما يكون من يخاطبه في مقام والده، أو كبيرًا في السن، أو شابت لحيته في العلم والخير.

ومن سلبيات هذا الخلق عند الأبناء: أنه قد يحصل أمام العوام فيضعف هيبة ذلك الشيخ، أو طالب العلم والداعي إلى الله، فيصير العامي لا يُقَدر حملة العلم، ويزهده في الأخذ عنه؛ لظنه أنه ليس أهلا لذلك، وقد لا يكون سوء هذا التصرف من الولد ناتجا عن كبر وتعالي، وتعمد الإساءة، بل قد يكون ولدا صالحا حافظا للقرآن أو بعضه، أو مجتهدا في العلم والطلب، ولكن قد يحصل منه ذلك عن جهل، أو غفلة، أو عن قصور في تربيته من أبيه أو ممن يربيه إذ لم يعلمه آداب التعامل مع الآخرين، وقد يكون السبب أيضا: اختلاطه بأبناء أصحاب فوضى، إلى غير ذلك من الأسباب.

الخلاصة:

ينبغي علينا -إخواني طلاب العلم- أن نعلم أبناءنا هذه الآداب، وليكن لنا معهم وقفات في تربيتهم على دقائق الأمور، وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات مع الآخرين، وأن يولي كل منا لهذا الجانب اهتماما كبيرا، وتوجيها سديدا.

ولا نغفل عن نقطة مهمة وهي: أن الوالد قدوة لولده، فبعض الآباء -هداهم الله- يخاطبون منهم أكبر منهم سنا، أو أكثر منهم علما بتلكم الطريقة، مما يجعل الولد يظن أن هذا الفعل لا بأس به، بسبب ما يراه من والديه من ندائهم لكبار السن بأسمائهم، أو للعلماء، فيظن بأن هذا هو الأصل، وهكذا..

فلذلك عليكم أيها الآباء -بارك الله فيكم- إصلاح أنفسكم أولا؛ ليصلح أبناؤكم بصلاحكم، ثم قوموا بدور التوجيه والنصح والإرشاد لهم بطرق طيبة يُقبلون عليها محبة ورغبة في إرضاء الله، وليس خوفا فقط من وجودكم عند تعاملهم مع الآخرين، وترغيبا لهم في حديث النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ- حين قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنكُمْ أَخْلَاقًا».

فعود ابنك على الأخلاق بتحفيزه لما له من عظيم الأجر والجزاء؛ فيزداد حبا في اكتساب الأخلاق الحسنة، بل وينافس بها غيره من أقرانه.

فكثير منا ربما عايش بعض الأبناء، وكيف يذكرونهم بالذم، وعدم الاحترام، ويصفون أباءهم بأنهم لم يربوهم، وربما تحرجوا من نصح آبائهم، وإذا نُصح الولد بادره بسوء الخلق، والله المستعان.

فيا أخي طالب العلم، لا تعرض نفسك وولدك للطعن بأنك لم تُحسن التربية، سواء في هذا الباب، أو في غيره من المعاملات مما هو من طاعة الله، أو مما هو في التعامل مع الناس.

وهذه نصيحة عامة لنا جميعا، أن يتدارك كل منا أبناءه وبناته، ويتعاهدهم بالنصح والتوجيه، ويجتهد في غرس الأخلاق الحسنة، ليجني ثماراً يانعة في الدنيا والآخرة

وهنا ننبه على أمر:

وهو أنه قد يقول قائل: ولدي ينادي من هو أكبر منه سنا باسمه مجردا؛ لأنه ليس شيخا، ولا مدرسا له، أو لأنه لا يعرفه جيدا... إلخ.

فأقول: من الخلق الحسن أن يناديه بيا عم لو كان في مقام والده، أو يا أبا فلان إن لم يكن كذلك... إلخ.

والكلام في هذا -أعني به: في تعامل الأبناء مع أهل السنة- أما مع العوام فجميل أيضا أن ينادي من هو في مقام أبيه وجده بـيا عم، أو يا جد، أو إذا كان من أهل المهن ناداه بمهنته فمثلا: يا طبيب، ويا مهندس، ويا أستاذ ونحو ذلك، والبنت تنادي من في مقام أمها بيا خالة، أو يا عمة، أو يا أستاذة ونحو ذلك، بحسب ما تعارف عليه الناس عرفا.

وقد رأيت بعض العوام أهل الأدب، منهم من يزجر ولده إن نادى من هو أكبر منه سنا باسمه؛ تأديبا له، بل وسمعت من يقول لولده: نادِ من تراه من أهل العلم بيا شيخ، ويا فقيه ونحو ذلك، ويعلمون الأولاد أن ينادوا من يكبرهم بيا عم فلان؛

احتراما له، فهذا واقع ملموس وجدناه بين العوام، فجزاهم الله خيرا.

فالأخلاق الحسنة ينبغي أن يعنى بها أهل السنة قبل الجميع؛ فهم حملة الدين والدعاة إليه، فلابد من التخلق بالأخلاق الحسنة، وتهذيب النفس عليها؛ فإنه محط أنظار ممن يحب الطعن والتقليل من شأن الدعوة السلفية الصحيحة، فلا ندع لهم ثغرة للطعن فيها، ولنتسلح بالأخلاق الفاضلة التي دعانا الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إليها، ولنتذكر حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حينما أخذته خديجة إلى ورقة بن نوفل فقالت له -تأدبا واحتراما-: اسمع من ابن أخيك. ففيه حسن المخاطبة من خديجة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فأجابها ورقة وقال: يا ابن أخي، ماذا ترى؟. وفيه خلق الكبير مع الصغير، أن يلاطفه بألفاظ حسنه، ويناديه بما يشعر بالثناء والاهتمام لأمره، فهذا يشجع الولد كثيرا إن صدر من أهل الفضل، فالشاهد أن خديجة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- ذكرت صيغة طيبة في كيفية مخاطبة من هم أكبر منها سنا، وأيضا توقيرا لزوجها فلم تجرده بذكر اسمه، فجمعت بين احترامه وتوقيره في نفسه ومع غيره -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

ختاما:

أُذكِّر الجميع بما جاء في مسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قال: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا».

وفي لفظ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْكَبِيرَ، وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ». وقد حسن الحديث العلامة الألباني -رَحِمَهُ اللهُ-.

وبحمد الله الأصل في أبناء أهل السنة أنهم على خير، وعلى خلق حسن ، ولكن لا بأس من التذكير، ومن النصح، فإن ديننا قائم على التناصح، فمن قصر فليصلح، ومن كان محسنا فليستمر.

وما أجمل ما قيل:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا ... عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوه

وَما دانَ الفَتى بِحِجىً وَلَكِن ... يُعَلِّمُهُ التَدَيُّنَ أَقرَبوه

وإني لأعتذر لطول المنشور، ولكنه للأهمية فكان لابد من ذلك.

ونسأل الله التوفيق والسداد لنا ولأبنائنا وبناتنا، وسائر أبناء وبنات المسلمين،

والحمد لله رب العالمين.

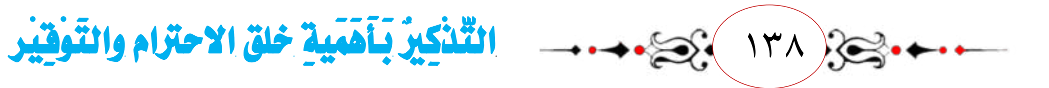
وكتبه:

أبو المنذر عمار الحوباني

غفر الله له.

محافظة حضرموت





الخاتمة

هذا ما يسر الله لي جمعه في هذه الرسالة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



الفهرس:

